1069
HARLEQUIN

١٠٦٩
دار م. النحاس

عبير

الحقيقة الضائعة

شارلوت لامب

www.elromancia.com

مرمورية

الحقيقة الضائعة

شارلوت لامب

لم يكن برونو فالكوشي سوى رجل حاقد يشكل تهديداً كبيراً. فهو لم يتحايل فقط للوصول إلى مركز السلطة في المصرف الذي تعمل فيه مارتن، ولكنه الآن قد صمم على إيقاعها في حبائله لتكون تحت سلطته أيضاً. ولكن لم يكن ثمة سبيل إلى أن تسمح له مارتن، بذلك رغم جاذبيته غير العادية التي ترسلها عيناه الإيطاليتان السوداوان الكبيرتان بنظراتهما التي اصابت منها الصميم.

«تعالي نتابع سهرتنا، يا مارتن.»

استدارت إليه قائلة وقد شحب وجهها: «أتعلم أنني أشعر بالإشمئزاز؟ لقد جعلتني أضعف أمامك وأنجرف معك بشكل مفاجيء في مشروع زواج. لقد كانت هذه خطتك طيلة الوقت، أليس كذلك؟ ثم ابتدأت بتنفيذها وكدت تنجح، وكدت أنا اسقط في الشرك.»

وساد صمت عميق، كانت عيناه السوداوان تلمعان خلاله، ثم قال: «ولكنك سقطت فعلاً... وتزوجتني، حتى انني لم ابذل جهداً يذكر لإقناعك...»

شارلوت لامب

ولدت في لندن أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث أمضت معظم الوقت متنقلة بين الأقارب والأنسباء هرباً من القصف والغارات الجوية. تزوجت من صحافي، ولها الآن خمسة اولاد. تعيش الأسرة الآن في إحدى الجزر البريطانية وتدعى آبل اوف مان. كتبت تشارلوت لامب أكثر من مائة كتاب حتى الآن.

عبير ١٠٦٩

Abir 1069

الحقيقة الضائعة

شارلوت لامب

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

الفصل الأول

كانت مارتن على عجلة من أمرها حيث أنها تأخرت، وهكذا قفزت من سيارة الاجرة وركضت مجتازة الرصيف متجهة نحو مطعم ماي فير، دون أن تلحظ ذلك الرجل الذي خرج من سيارة خاصة كان قد أوقفها في الناحية الأخرى من الشارع، ثم يتقدم في نفس اتجاهها.

وعندما وصلا إلى الباب تبادلا نظرة خاطفة دون أن يتوقف أحد منهما ليسمح للآخر بالدخول، ذلك أن مارتن ظنت نفسها الأقرب إلى ذلك الباب الدوار، بينما كان هو أسرع منها، وهكذا كان دخولهما في نفس الوقت ما جعلهمايدخلان معاً في قسم واحد منه.

رفعت إليه عينين خضراوين ثائرتين كبحار الشمال، فالتقتا بعينين سوداوين باردتين تبعثان على الغيظ، بينما قال لها بصوت عميق ذي لكنة اجنبية لم تستطع ادراك كنهها: «عليك أن تتراجعي إلى الخلف لكي يتحرك الباب.»

فأجابت بحدة: «لو كنت من الشهامة بحيث كنت تدعني أدخل أولاً، لما حدث هذا. تراجع أنت إلى الخلف.»

لم تعجبها منه لهجته الحاسمة بينما كان الذنب ذنبه، كلا، ولا كونها اضطرت لمعرفة اخلاقه إلى الحد الذي شعرت به تماماً بذلك الانسان البدائي رغم ملابس المساء الحضارية التي يرتديها، البدائي بصلابة عضلاته وقوتها، هذا إلى طوله البالغ ستة أقدام ووجهه الذي كأنه قد من الصوان.

قال يجيبها بنفس الحدة: «لا فائدة من الجدل عمن الذنب ذنبه، تراجعي فقط قليلاً إلى الخلف.»

فقالت: «أنت الذي سيفعل ذلك.»

أيظنها أنثى عاجزة ضعيفة يمكن له أن يفرض عليها رأيه لمجرد أنه أطول قامة منها بقدم تقريباً؟ إنها لن تتراجع عن موقفها ولو اضطرها الأمر إلى البقاء طيلة المساء بهذا الوضع.

أحنى رأسه ينظر في عينيها الخضراوين الغاضبتين. فأجفلت كهرة تواجه خطراً، وقد قف شعر رأسها. ذلك أن شيئاً في منظره المتغطرس، وشعره الأسود وعينيه الباردتي النظرات، ذكرها برجل أحبته ذات مرة، ولكنه هجرها ليتزوج من فتاة ثرية. لقد مضى على ذلك ثلاث سنوات، خرجت أثناءها مارتن مع أصدقاء لها، ولكنها حرصت على أن لا تقع في غرام أي منهم، فقد ذاقت طعم الآلام مرة ولا تريد أن تكرر التجربة.

قال ببرود: «أنظري، حتى الغبي يمكنه أن يرى أن أسهل طريقة لكي ينفتح الباب هو أن تتراجعي إلى الخلف.»

فقالت وهي تميل جانباً: «حسناً جداً.» وكانت قدمه في طريقها، فشعرت بكعب حذائها العالي يغوص في مقدمة حذائه اللامع.

نظر إليها ثائراً وهو يتنفس بحدة ويتمتم بشيء لم تسمعه جيداً، ولكنها شكت في أن يكون شتيمة، فقالت وعيناها تلتقيان بعينيه السوداوين: «آسفة.»

قال: «انك فعلت ذلك عمداً.»

فأجابت: «لا تكن سخيفاً، لقد كنت أفسح لك الطريق، فكيف لي بأن اعلم أنك واضع قدمك في طريقي؟»

حدق فيها باستياء ثم قال: «أظن من الأفضل أن اقوم أنا بمحاولة لخروجنا وإلا امضينا الليل كله هنا. فقط لا تتحركي.»

واستدار بكتفه حاشراً نفسه لكي يتمكن من الخروج. ما جعلها تشعر، بالرغم منها، بالحرج والخجل.

قالت له بصوت خفيض وهي تفكر في أنه فعل ذلك متعمداً من باب الانتقام لإصرارها على أن يكون هو الذي يتراجع وليس هي، قالت: «ها... أنتبه.»

ولكن كان من الخطأ أن تقول شيئاً كهذا، لأن ذلك جعله يتوقف فجأة يحدق فيها بعينين ضيقتين، ثم قال: «كوني واثقة من أن خروجي هكذا لا يزعجني بشيء.»

فتوهج وجهها وهي تتمتم قائلة: «أوه، هيا أخرج. إن الناس ينظرون إلينا.»

وكان يوجد البعض في داخل المطعم يحاولون الخروج، بينما آخرون على الرصيف يحاولون الدخول وكان الجميع يراقبونهما ضاحكين، ما جعل مارتن تشعر بالغضب لحماقتها، كما جعلها تبتسم لأولئك الناس وهي تهز كتفيها مظهرة العجز.

وهكذا تراجع الرجل الكريه أخيراً، ومن ثم دفعت مارتن الباب داخلة إلى المطعم حيث خلعت سترتها المسائية الحريرية وناولتها إلى النادل وهي تسأله: «هل حضر السيد ردموند؟»

فأجاب: «إذا كان قد حضر فلا بد أنه في الاستراحة، يا آنسة.»

وسمعت الباب خلفها يعود إلى الدوران، ثم يدخل منه ذلك

الشخص الضخم، ولكنها تجاهلته، وعندما تابعت طريقها نحو الاستراحة، شاهدت انعكاس صورتها في الزجاج الأسود الذي يغطي الجدار خلف الاستراحة. كانت نحيلة في ثوب أسود من الجورجيت، ذات وجه مميز بشكله البيضاوي الناصع البياض وعنق طويل وشعر أحمر قاتم معقود على رقبتها من الخلف. ورأت خلفها ذلك الرجل الذي كان يزيدها طولاً بحوالي الثلاثين سنتمتراً، أسود الشعر يرتدي سترة المساء السوداء فوق قميص ناصع البياض، واعترفت انهما، هما الاثنين، يشكلان مزيجاً جميلاً من اللونين الأبيض والأسود، ما عدا لون شعرها ذي اللهب القاتم.

وقفت تنظر حولها، فوجدت قلة من الناس، ولكنها لم تر أثراً لتشارلز وهذا لم يدهشها. فهو غالباً غير دقيق في مواعيده، ولكنه على كل حال، رجل لديه الكثير مما يشغل عقله، إذ أنه، منذ وفاة زوجته، دفن نفسه في العمل، حتى انه لم يكن يعرف، أحياناً، في أي يوم هو أو أي تاريخ. ولكن ما كانت ترجوه فقط، هو أن لا ينسى أنه دعاها إلى العشاء هذه الليلة.

كان قد وصل من نيويورك بعد الظهر، ولم يحضر إلى مكتبه إذ بقي في منزله ليرتاح من عناء الرحلة، وكان قد واعدها على العشاء باتصال هاتفي من نيويورك. وكانت تدرك أن ثمة ما فعله يريد أن يتحدث إليها خارج نطاق العمل الذي لم يكن ليسمح لهما بالخوض في أحاديث خاصة.

وما ان جلست إلى إحدى الموائد الفارغة، حتى أقبل النادل يسألها عما تريد أن تشرب، فأجابت: «أريد كوباً من المياه المعدنية من فضلك.» ثم استرخت في جلستها واضعة ساقيها الواحدة فوق الأخرى وهي تسوّي من ذيل ثوبها

فوق ركبتيها وتجيل عينيها حولها بشكل عفوي، لتجد نفسها تحدق في تلك العينين السوداوين لذلك الرجل الأجنبي اللتين كانتا تراقبانها. وبادلته هي نظرة باردة كبرودة الثلج، إذ لم تكن تحب أن ينظر إليها أحد بهذا الشكل وكأنها سلعة للبيع، وليست بشراً. وكان بعض الرجال يضمرون بمثل هذه النظرات، إهانة صامتة. وساورها شعور بأن نظرات هذا الرجل هي من هذا النوع، خاصة بعد الطريقة التي كان تحدث بها إليها أثناء انحشارها في الباب الدوار.

لكنه ما لبث أن حول نظراته عنها لينظر إلى ساعة معصمه الذهبية مقطباً جبينه، ثم وقف وتصلبت هي في جلستها ظانة أنه سيتوجه نحو مائدتها، ولكنه لم يفعل بل اتجه خارجاً من الاستراحة دون أن يلقي عليها نظرة أخرى، بينما أخذت بعض النسوة الحاضرات يتابعنه بانظارهن النهمة.

فكرت مارتن بأنه يستحق ذلك فعلاً. كانت تحب طوال القامة من الرجال. وكانت سمرة بشرته رائعة، هذا إلى كتفين عريضتين وساقين طويلتين. ولكنها ما لبثت ان عبست. ما الذي كانت تفكر فيه؟ إن الرجال الذين على شاكلته لا يجلبون سوى التعاسة. ولا بد أن ابتعادها عن الرجال منذ حوالي السنة، جعلها تفكر بهذا الشكل. فالوحدة والشعور بالإحباط جعلها لا تنظر إلى رجل مرتين. ورفعت كوب الماء ترشف منه وهي تتساءل، أين ترى تشارلز الآن؟ ولكنها سرعان ما رأته يسرع نحوها، بقامته النحيلة وشعره الأشقر وبذلته الأنيقة.

وتهالك جالساً على مقعد بجانبها وهو يقول: «آسف، هل تراني تأخرت أم أنك أنت وصلت مبكرة؟»

فأجابت كاذبة وهي تبتسم له: «لم يمض عليّ دقائق هنا.» وبان القلق في عينيها وهي تلمح إمارات التعب عليه. فهي لم تره منذ اسبوع ومع ذلك أذهلها ما بدا عليه من كبر السن. لقد كان في الخامسة والأربعين فقط ولكنه كان يبدو أكبر من ذلك. وكانت الخطوط تحيط بفمه وعينيه بينما كان جلده اسمر اللون. وجاء النادل ينظر إليه مستطلعاً، فقال له باسماً: «كالعادة، يا جيمي.» فقد كان تشارلز يتناول طعامه هنا في أغلب الأحيان، إذ كان يسكن في شقة فخمة على مقربة من هذا المطعم، وكان يخدمه ويدير منزله رجل وزوجته، وكان الرجل سائقاً للسيارة في الوقت نفسه، وكان تشارلز يمنحهما إجازة ثلاث ليال في الأسبوع، حيث يتناول عشاءه في المطعم هذا. استدار تشارلز نحو مارتن يقول وهو ينظر إلى ثوبها باسماً: «إنه الثوب الذي أفضله عليك إذ يظهر جمالك.»

احمر وجهها قليلاً، فهي قد ارتدت هذا الثوب عمداً لمعرفتها بتفضيل تشارلز له. كان عملها معه يتطلب منها أناقة بالغة لتتمكن بذلك من الظهور في المجتمعات والمقابلات التي يفرضها عليها كونها مساعدته الخاصة. وكان هو يعطيها مبلغاً إضافياً إلى راتبها لأجل ذلك، كما كان يشجعها على شراء اغلى الثياب لكي تمثل المصرف الذي يملك، وذلك ببالغ الأناقة والثراء.

وأجابته على إطرائه ذاك: «شكراً يا تشارلز. انك أنت أيضاً تبدو بالغ الأناقة هذه الليلة.»

ألقى عليها نظرة لا تبدو فيها القناعة وهو يجيب لاوياً فمه: «شكراً.» ولا شك أنه كان يدرك جيداً أن بذلته هذه لم تعد تناسب جسده الذي كان يسرع بالنحول يوماً بعد يوم.

لم يكن تشارلز قط من قبل متين البنية، ولكن جسده ابتدأ في النحول منذ موت زوجته. ولم يكن هذا هو التغيير الوحيد الذي أصابه، فقد ابتدأ الشيب يدب في شعره الذي كان ذهبياً جميلاً كما أن نظرة شاردة على الدوام احتلت عينيه الزرقاوين.

كان هو الذي يقود سيارته عندما وقع الحادث الذي أدى إلى مقتل زوجته على الفور، بينما خرج هو منه ببعض الرضوض والجروح وإصابة خفيفة في الرأس. ولم يشف تشارلز قط من صدمته بموت زوجته، فقد استبد به الشعور بالذنب الذي كان يصور له أنه الملوم في ذلك وأنه كان ينبغي أن يموت هو أيضاً. وكان من الممكن أن يشفى من الصدمة لو كان لهما أولاد، ولكنهما، هو وإليزابيت زوجته، لم يكونا قد فكرا بعد في إنشاء أسرة.

وقال للنادل عندما أقبل هذا بصينية عليها كوبين يحتويان عصير المانغا: «اشكرك يا جيمي. إنني انتظر ضيفاً آخر معنا. هل لك أن تنتبه إليه حين يحضر؟ إن اسمه برونو فالكوشي.»

فأجاب النادل: «هل هو إيطالي يا سيدي؟ هنالك رجل يتكلم بالإيطالية في الهاتف. سأرى إذا كان هو نفسه.»

وعندما ابتعد النادل، سألته مارتن: «من الذي سيتعشى معنا؟» وكان يبدو في صوتها شيء من الخيبة إذ كانت تتمنى أن يتناولا عشاءهما بمفردهما. ولكنها لم تدهش،

فقد كان تشارلز يقوم بمعاملاته مع الزبائن، غالباً في مثل هذه المناسبات من عشاء أو غداء.

وأجابها باسماً بمكر: «إنه إبن عمتي.»

فأجفلت كما كان يتوقع وهي تقول: «لم يسبق لك قط أن ذكرت أن لك أقارب.»

كان تشارلز يخبرها، من وقت لآخر، عن حياته العائلية، كما كان المستخدمون يتحدثون ببعض الأخبار عنه، ما جعلها تكوّن فكرة عن أن لا صلات عائلية وثيقة له، كما ان اصدقاءه الحميمين قليلون جداً، فقد كان العمل يستغرق كل وقته على الدوام، حتى أثناء حياة زوجته، ومنذ وفاتها انقطع عن الحياة الإجتماعية تماماً.

كان أصدقاؤه لا يخرجون عن كونهم زملاء عمل ومن المعارف وأكثرهم متزوجون، وهذا ما جعل تشارلز يبدو بينهم شاذ الوضع في اكثر المناسبات الإجتماعية. وكان هذا هو السبب في أنه اعتاد أن يصحب معه مارتن إلى مختلف المناسبات الخاصة التي كان يذهب إليها.

ولم يكن يجمع بينهما حب أو عاطفة خاصة، بل مجرد صداقة حميمة وزمالة في العمل. وكان العمل يستغرق كل وقتهما.

كان تشارلز قد أخبرها أن والديه أنجباه في سن متأخرة. وكان هو ولدهما الوحيد ما جعلهما يحوطانه ببالغ الحب والرعاية. وكانا قد توفيا منذ وقت طويل، منذ كان شاباً فتياً، تاركين لتشارلز ثروة كبيرة ومعظم أسهم مصرف الأسرة التجاري. وكان تشارلز قد ذكر أنه ابتدأ حياته العملية فور تخرجه من الجامعة، دون أن يعرف

الكثير عن العالم خارج نطاق العمل، وذلك إلى حين بلوغه الأربعين تقريباً. وفي تلك السنة، كان في باريس يحضر مؤتمراً عالمياً حيث قابل عارضة أزياء فرنسية رائعة الجمال تبلغ منتصف عمره وهي اليزابيت. وهكذا وقع تشارلز في غرامها بكل مشاعره، فتزوجها بعد ذلك بأسابيع، ولكن ليفجع بمقتلها، بعد ذلك بسنتين، في حادث الإصطدام ذاك.

وكانت مارتن تشعر نحوه بعطف عميق كما كانت معجبة به كذلك.

وعاد تشارلز يقول: «إن برونو هو قريبي الوحيد. ولم أقابله سوى مرتين، فهو يعيش في سويسرا.»

فسألته قائلة: «في سويسرا؟ لا بد أنه يعمل في مجال المصارف كذلك.»

فبدا الهزل في ملامح تشارلز وهو يجيبها قائلاً: «اتظنين ان هذا ما يجب أن يكون، بطبيعة الحال؟ حسناً، إن الحق معك، فهو يعمل في مجال المصارف وأظن هذا في دمه، أو ربما كان هذا اقتراحاً من أمه، على كل حال، فهو يعمل في المصرف التعاوني السويسري حالياً. ولكنني أنوي هذه الليلة أن أقترح عليه العمل معنا.»

فحملقت مارتن فيه بعينيها الخضراوين الواسعتين وهي تقول: «أوه، فهمت.» وتساءلت خائفة، عما يعني هذا. بينما تابع هو يقول بهدوء: «لا أريد أن يعلم هذا أحد آخر، يا مارتن، فأنا أخبرك بذلك لعظيم ثقتي بك. وأريدك أن تعلمي أنني كتبت وصية جديدة أترك فيها له نصيبي من أسهم المصرف. فليس عندي قريب غيره يرثني.»

فشعرت مارتن فجأة بالبرودة تشمل كيانها، وسألته: «إنك تتكلم وكأنك... ولكنك مازلت في الأربعينات من عمرك، وستتزوج مرة أخرى، إنني أعلم أنك مازلت تفتقد اليزابيت، إذ ليس من السهل نسيان شيء كهذا. ولكنك تبدو وكأنك تركت الدنيا، وهذا ما لا ينبغي لك. مازال امامك وقت طويل للتفكير في عمل وصية.»

فابتسم بفتور قائلاً: «كنت اظنك اكثر حكمة يا مارتن. فإن عدم كتابة وصية ليس من الحكمة في شيء.»

فهزت كتفيها قائلة: «هذا صحيح من ناحية المبدأ، ولكن...» فقاطعها قائلاً: «وكذلك من الناحية العملية. وأنت أيضاً عليك أن تكتبي وصية. فالإنسان لا يعرف ما الذي ينتظره في اللحظة التالية.» وعادت إلى عينيه تلك النظرة الشاردة. فقد كان يفكر بزوجته وما حدث لها.

فوضعت مارتن يدها على ذراعه تعزيه بصمت. فابتسم لها بسرعة بعد أن عاد إلى واقعه، ثم قال: «لقد كتبت وصيتي، على كل حال. إن برونو كان يجب أن يشارك في المصرف منذ وقت طويل، فقد كانت أمه شقيقة أبي، ولكن جدي رفض أن يترك لها شيئاً لأنها تزوجت رغم مشيئته، وهو طبيب سويسري قابلته أثناء قيامها بإجازة في لايك كومو. وقد ثار عليها والداها، ذلك أن فريدريك كان أجنبياً اولاً، وثانياً لم يكن من رجال اعمال المصارف، وأسوأ من ذلك كله أنه كان فقيراً. ولكن يبدو أنه كان رجلاً طيباً جذاباً وطبيباً جيداً. وكانت عمتي اونا سعيدة معه جداً، ولكن أباها لم يغفر لها قط عصيانها، وهكذا ترك كل ثروته لأبي.»

فقالت مارتن: «لم يكن هذا عدلاً منه، لا بد أن عمتك كانت تعيسة لذلك.»

فقال: «أنا واثق من أنها كانت كذلك.»

فتمتمت قائلة «كما أنه يقود إلى عداء عائلي.»

فضحك تشارلز قائلاً: «ان لديك نزعة عاطفية قوية.» فاحمر وجهها، فقد كانت دوماً تحاول إخفاء هذا، فهو لايتلاءم مع اعمال المصرف العملية الجافة، هذا أولاً، وثانياً قادها ذلك إلى علاقة عاطفية سببت لها الآلام وحطمت قلبها في النهاية. وهز تشارلز كتفيه قائلاً: «أظن الأمر كان شيئاً من هذا القبيل، فقد اعتاد والداي تبادل بطاقات الأعياد مع عمتي اونا، ولكنهما لم يذهبا قط لزيارتها في سويسرا، كما أن عمتي لم تعد إلى انكلترا فقد حصل بينهما شرخ واسع.»

فقالت: «يا له من أمر محزن.» وبدا لها هذا كعبث الأطفال، ولكن غالباً ما كان الناس يتصرفون إزاء بعضهم البعض بهذا الشكل. وتنهد تشارلز قائلاً: «هذا صحيح. إنه محزن وبالغ الغباء. عندما توفي والداي، فقدت أنا كل اتصال مع عمتي أونا، ولكنها ماتت منذ سنوات قليلة، فكتب إلي برونو يخبرني بذلك. وحدث أنني سافرت إلى سويسرا في رحلة عمل، فقابلته أثناء وجودي هناك، وقد أحببته.»

فسألته: «هل يعلم هو أنك جعلته وريثك؟»

فنظر إليها باسماً وهو يقول: «لم أخبره بعد.» فبدت في عيني مارتن نظرة تأمل... ربما لا يعلم برونو فالكوشي بأن تشارلز أورثه نصيبه في المصرف، ولكنه سيعلم طبعاً بأن تشارلز غير متزوج وليس له وريث غيره، فإذا كان هو رجلاً

سيئاً، فربما وضع خطة يقنع بها تشارلز بأن يترك له شيئاً من المال.

وسألته: «هل جاء هو إلى لندن بنفسه أم أنك أنت دعوته للقدوم؟»

فأجاب: «لقد اتصل بي في الأسبوع الماضي ليخبرني بأنه قادم إلى لندن لإنجاز بعض الأعمال. يا لعقلك الصغير المتشكك هذا.» وابتسم لها.

فقالت: «إنني لم أقل شيئاً.»

فقال: «ليس بك حاجة للقول، فإن بإمكاني قراءة أفكارك. على كل حال. إنني أعرفك جيداً، يا مارتن.» وتبادلا النظرات وهما يضحكان، وفي تلك اللحظة، تقدم شخص من المائدة، فوقف تشارلز ماداً يده وقد أشرق وجهه المتعب وهو يقول: «آه، ها أنت ذا يابرونو. لقد ابتدأت أظن أنك نسيت كل شيء عن الليلة.»

فأجاب: «لقد كنت طيلة الأسبوع أتطلع إلى هذه الليلة.»

أما مارتن فقد تسمّرت في مكانها وقد فتحت فمها ذهولاً. أليس هذا هو نفس ذلك الشخص؟ هل كتب عليها أن تختار، من بين كل رجال العالم، برونو فالكوشي لتصب عليه كراهيتها على الفور؟ لم يكن قد خطر لها قط أن الرجل الذي كانت تنتظره مع تشارلز، يمكن أن يكون هو نفسه ذلك الرجل الذي حشرت معه في باب المطعم الدوار.

وكان تشارلز يبتسم مشيراً إليها قائلاً له: «أقدمك إلى يدي اليمنى... مارتن آرشر، والتي هي مساعدتي الخاصة أثناء الأربع سنوات الأخيرة.»

مدت مارتن يدها بذهول، فأخذها برونو فالكوشي بيده الكبيرة القوية السمراء.

جازفت ورفعت بصرها إليه، فرأت في عينيه السوداوين نظرة ساخرة هادئة، وهو يتمتم ببعض الكلمات المناسبة بكل أدب، فأجابته بمثلها، ثم ترك يدها.

وقال له تشارلز: «تفضل بالجلوس، إن هذا العصير طيب المذاق.»

فنظر إلى كوب المياه المعدنية أمام مارتن ثم قال: «لا بأس بكوب كهذا، شكراً.»

مط تشارلز وجهه قائلاً: «أتفضل المياه المعدنية على العصير.»

فأجاب: «إنني مثل مساعدتك هذه، أحب أن احتفظ بأعصاب هادئة.»

فرمقته مارتن بنظرة سريعة، في الوقت الذي كان فيه تشارلز يطلب له المياه المعدنية بالإضافة إلى قائمة الطعام، ثم يعود إليه يخاطبه قائلاً: «والآن يا برونو، أي نوع من العمل جاء بك إلى لندن؟»

فأجاب برونو: «الأعمال المصرفية.»

فضحك تشارلز قائلاً: «هذا طبيعي. هل هو سر؟ بإمكاننا تغيير الموضوع إذن.»

فقال برونو: «لا يمكنني التحدث عنه بالتفصيل، وقد تقرأ عن ذلك في الصحف المالية يوماً ما، ولكن ليس الآن.»

فقال تشارلز: «حسناً، وهل يمكنك أن تخبرنا عن مقدار مدة مكوثك هنا؟»

فأجاب: «سأمكث اسبوعاً وربما اسبوعين، ثم قد آخذ إجازة، بعد ذلك، أذهب أثناءها إلى اليونان وربما إلى

الجزر الكاريبية. انني اريد ان ارتاح فترة استمتع فيها بأشعة الشمس قبل ان اعود إلى العمل.»

فقال تشارلز: «ولكن بشرتك سمراء بشكل رائع. ألا تظنين ذلك يا مارتن؟»

فألقت إلى ناحية برونو فالكوشي بنظرة أخرى، ثم قالت باختصار: «انها رائعة.»

فشعرت ببرونو ينظر إليها متأملاً شعرها الأحمر القاتم وعينيها الخضراوين الناريتين، ثم سألها: «أين تمضين إجازاتك؟» فهزت كتفيها دون أن تجيب وقد توهج وجهها لنظراته تلك. وأجاب تشارلز عنها: «إن مارتن لا تحب الأرياف كاكثر ذوي الشعر الأحمر. ذلك أن بشرتها الرائعة يضرها التعرض للشمس. ولكننا أمضينا وقتاً رائعاً في السويد الصيف الماضي، أليس كذلك يا مارتن؟ كما أننا استمتعنا تماماً في سويسرا منذ اكثر من سنتين.»

فقال برونو: «وخاصة مناطق التزلج على الثلوج دون شك.»

لم يحاول أن يخفي ما كان يفكر فيه وهو ينقل نظراته بينها وبين تشارلز وقد التمعت السخرية فيهما. أدركت أنه يرتاب بوجود علاقة عاطفية بينهما. هل هذا معقول وتشارلز يكاد يكون في سن أبيها؟ ولكنه مازال يبدو بالغ الوسامة إنما دون حيوية أو نشاط، فقد ابتدأ الشيب يتخلل شعره وبدا الإرهاق على ملامحه. وكانت هي مولعة به جداً، وشاعرة بالأسف لأجله، ولكن هذا هو كل شيء. وشعرت بالغيظ من نظرات برونو المتأملة الساخرة.

ووصل النادل يسأل تشارلز: «هل انتهيتم من اختيار

انواع الطعام، يا سيدي؟» فنظر تشارلز إليهما متسائلاً، فطلبت مارتن سمكاً وسلطة وبطيخاً اصفر، كما طلب برونو بطيخاً اصفر كذلك وبيفتيك مع السلطة. أما تشارلز فطلب عجة وسلطة وبطيخاً اصفر. فهو لايكاد يذوق شيئاً هذه الأيام. وأثناء انتظارهم تجهيز مائدتهم، أخذ تشارلز وبرونو يتحدثان عن الوضع المصرفي عالمياً. وكانت مارتن تستمع باهتمام، مستوعبة، بشيء من الذعر، ذكاء برونو الحاد. كان تشارلز يعرف ما يتحدث عنه، ولكنه كان كالآلة التي تسير الآن بنصف طاقتها. فهو لا يفتأ ينسى ويفقد اهتمامه، متجاوزاً النقاط الحيوية في الموضوع، وابتدأت تتكهن بأن في إمكان برونو أن يسبقه في كل شيء.

لم يكن ثمة شك في ذلك. فقد كان في الرجل طاقات قوية كامنة. وساورها شعور عميق أن تشارلز لن يستمع إليها فيما لو حذرته منه، فهو سيضحك منها بالتأكيد.

وأقبل النادل يدعوهم إلى المائدة. فنهض تشارلز، كما وقفت مارتن، وهو يمد يده يمسك ذراعها متوددا، فتقبلتها وهي تبتسم له وقد بدا الحنان في عينيها، فقد كان دوماً نبيلاً شهماً على الطريقة القديمة وكان هذا يعجبها.

ومن زاوية عينيها لمحت وجه برونو، لترى عينيه الفاحمتي السواد تراقبانهما بهزل ساخر وقد لوى شفتيه. فتحولت ابتسامة مارتن إلى غضب. إن جلوسها إلى المائدة مع رجل مثل هذا ستكون معاناة كبرى لها. وتمنت لو أنها لم تستطع قراءة أفكاره بمثل هذا الوضوح، ولكن يبدو أنه كان يقصد إفهامها ما يفكر فيه.

ولكن ما غرضه من ذلك؟ وقطبت حاجبيها، تاركة تشارلز

يتجه بها نحو غرفة الطعام. لا بد أن كل هذا مجرد تصورات منها.

كان جلوسها إلى المائدة بين الرجلين، فكانت تميل بجسمها واهتمامها إلى تشارلز كلياً، مهملة الرجل الآخر إلا عند الضرورة.

أما برونو فالكوشي، فقد مال بظهره إلى الخلف ومضى يراقبها بعينين ضيقتين، وقد طغت شخصيته على المكان جسمانياً، بينما استلم تشارلز دفة الحديث، مستغرقاً في الكلام عن موضوعه المفضل، وهو الأحوال المصرفية العالمية، ما جعله يغفل عن الصمت السائد بين ضيفيه.

كان العشاء قد اقترب من نهايته، عندما ألقى تشارلز على برونو السؤال الذي كانت مارتن تنتظر صدوره عنه، قال: «ما قولك في أن تترك عملك الحالي، يا برونو، وتأتي للعمل معنا في رتبة أعلى؟»

لم يظهر برونو أي دهشة، بل بقي صامتاً وكأنه يستوعب الإمكانيات كافة قبل أن يجيب بهدوء: «إن هذا عرض جيد تماماً يا تشارلز. وأنا بحاجة إلى أن اعرف بالضبط ماذا يدور برأسك، بالطبع، كما إنني بحاجة إلى التفكير في الأمر. ولكنني بوجه عام، مهتم تماماً بعرضك هذا.»

فقال تشارلز باسماً: «ذلك ما رجوته. وأنت لن تندم في حالة قبولك، يا برونو. إنني اعدك بذلك، إن مستقبلك معنا سيكون ممتازاً، أفضل كثيراً من أي وضع لك حالياً، ان مصرفنا هذا عائلي وأنت قريبي الوحيد.»

وفكرت مارتن بأنه ما كان له بأن يعرض الوضع بهذه

الصراحة، فقد كان بذلك يكشف ضعف مركزه. ومضت تراقب وجه برونو بعينين حادتين عدائيتين.

أما هو فكان يراقب تشارلز بوجه جامد الملامح. وتمنت لو باستطاعتها أن تعلم بماذا يفكر. هل هو مسرور؟ هل يشعر بالإنتصار؟ بالإثارة؟ لم يكن يبدو عليه شيء، وختم تشارلز حديثه قائلاً: «سأجعل مارتن ترتب لك عرضاً بهذا يحتوي كل شروط الإتفاق، وبعد أن تستوعبها تماماً، نتحدث في الأمر. إنني بصراحة، اظن ان اسم امك كان يجب أن يُذكر في وصية والدها، فتنال اسهماً في المصرف.»

فأومأ برونو برأسه قائلاً: «نعم، كان يجب ذلك.» ورأت مارتن فكه يتصلب بعنف وقد بان في عينيه شيء من الغضب. فإذا كان تشارلز يعتقد أن برونو لم يكن مستاء مما عوملت به أمه، فهو مخطيء جداً. ذلك أن برونو مملوء غيظاً ومرارة. وسرت قشعريرة في جسدها وهي ترجو أن لا يكون تشارلز قد اقترف غلطة شنيعة. ولكن ما هو التهديد الذي يشكله برونو له؟ ليس بإمكانه أن يضر تشارلز بشيء وهو الذي يملك الأسهم، وكان تشارلز يبتسم له بابتهاج، غير مدرك ما يعتمل في نفس الشاب من مرارة، وهو يقول له: «إنني أريد أن اصلح من أخطاء الماضي، يا برونو، ولهذا أريدك أن تشترك في أعمال الأسرة حيث هي انتماؤك.»

فتحركت مارتن بقلق وقد قطبت حاجبيها، وودت لو تسأل تشارلز، أليس لك عينان؟ الا تستطيع أن ترى ما يخفيه بمنظره الحسن وتصرفاته المهذبة؟

وألقى برونو نحوها نظرة سريعة باردة. ربما لم يلحظ تشارلز اضطرابها، ولكن أدركه برونو فالكوشي، ولكنه لم

يهتم لما بدا عليها من ذعر. إذ حدّق في عينيها، ثم ابتعدت نظراته وقد رفع حاجبه بسخرية.

فاحمرت وجنتاها وهي تدرك ماوراء رفعه لحاجبه من معنى، وهو أنها قد تعترض على هذا ولكنها لن تشكل له عائقاً، إذ أنه سيعرف كيف يوقفها عند حدها.

دفع تشارلز الحساب للنادل، ونهض واقفاً وقد بدا عليه فجأة الإرهاق والشحوب، ثم قال: «إنني آسف يا مارتن إذ كنت أنوي ايصالك إلى بيتك بنفسي، ولكنني لا أكاد استطيع الوقوف على قدميّ. هل تستائين إذا أنا ارسلتك في سيارة اجرة إلى حيث تسكنين؟»

فقالت: «لا تهتم لذلك...» ولكن برونو قاطعها قائلاً: «إن معي سيارتي في الخارج وسأوصلها بنفسي.»

فقالت: «لا حاجة بك لذلك. إن بإمكاني أن استقل سيارة اجرة.» ذلك أن مجرد تفكير مارتن في البقاء خمس دقائق مع هذا الرجل بمفردهما، أرسل القشعريرة في جسدها.

ولكنه هز كتفيه قائلاً: «مازال الوقت مبكراً، وسأستمتع بقيادة السيارة على ضفاف النهر.»

فابتسم تشارلز قائلاً: «وبهذا يمكنكما أن تتعارفا بشكل أفضل. إنها فكرة ممتازة، كان عليّ أن افكر فيها بنفسي. ان مارتن مهمة بالنسبة إليّ، يا برونو، وهي بإمكانها أن تخبرك بكل ما يتعلق بأمور المصرف.»

وعندما اتجه برونو نحو سيارته التي كانت تقف في الناحية الأخرى من الشارع، تصلب جسدها وهي تلحظ ابتسامته الخفية. فلولا أنها واثقة من أن تشارلز سيغضب منها، لصفعت هذا الرجل.

ولكنها اتجهت مع تشارلز إلى سيارته وهي تنظر إليه باهتمام قائلة: «انك تبدو مريضاً تماماً، يا تشارلز. فأنت تجهد نفسك في العمل منذ مدة، وأظنك بحاجة إلى إجازة طويلة. لماذا لا تقوم بذلك؟»

فأجاب بهدوء: «سأفعل ذلك. أنت حارسي الأمين. لا تظني انني غير مدرك ما تقولين. والآن كوني لطيفة مع برونو، إنني أريده أن ينضم إلينا يا مارتن، وسأقبل كل شروطه. لقد سبق وتحريت عنه بشكل كاف فوجدته طيب السمعة، ويقوم بمعاملات ممتازة. إنني أريده معنا حتى ولو لم يكن من اقربائي. ولكن بما أنه من أسرة ردموند، حتى ولو اختلف الاسم، فأنا مصمم على التقارب معه بأي طريقة كانت.»

فقالت: «حسناً، في هذه الحالة، سأقوم أنا بكل ما في وسعي.» وكانت تعني ما تقول بالرغم من رأيها الخاص بهذا الرجل. انها ستقبل أي شروط قد يقدمها برونو فالكوشي، ولكن شعوراً كان يساورها بأن اقناعه ليس ضرورياً لأنه قد سبق وخطط للإنضمام إليهما.

وابتسم تشارلز لها من النافذة وهو يدير المحرك، قائلاً: «إنني أعلم أن بإمكاني دوماً الوثوق بك. إلى اللقاء غداً يا مارتن.»

وعندما ابتعد، استدارت لتجد برونو خلفها واقفاً بجانب سيارة طويلة فارهة من ماركة رولز - بنتلي وهي إحدى أجمل السيارات التي رأتها في حياتها. وسال لعابها لمنظرها هذا، فقد كانت تعشق السيارات القديمة الطراز.

وفتح لها باب السيارة وهو يسألها: «إلى أين تريدين أن أوصلك؟»

فأجابت: «هل تعرف منطقة تشلسي؟»

فأومأ قائلاً: «نوعاً ما. عليّ أن أسير أولاً إلى ساحة البرلمان، ثم أتابع من هناك رأساً. هل أنا على صواب؟»

اجابت: «إنني أسكن على مرمى حجر من متحف تيت. وسأرشدك من هناك.»

صعدت إلى السيارة فبهرها جمالها من الداخل بمقاعدها الجلدية الناعمة الملمس ولونها السكري، فسألته: «هل هذه السيارة لك، أم أنك استأجرتها؟» فالتفت إليها وألقى عليها نظرة طويلة قبل أن يقول ببرود: «إنها لي وقد اشتريتها لتوي.»

ففكرت في أنها لا بد كلفته الكثير. وتساءلت عما يكسب في السنة، ما جعله يتمكن من شراء مثل هذه السيارة؟ حسناً، انها ستعرف ذلك قريباً، عندما يبدآن محادثاتهما هو وتشارلز.

سألته: «ألست متزوجاً، يا سيد فالكوشي؟»

فهز رأسه نفياً بابتسامة ساخرة.

فعادت تسأله: «ألم تتزوج قط؟»

فأجاب: «كلا. وأنت؟»

فأجابت: «كلا.»

فقال ببطء: «انك إذن مكرسة نفسك لعملك، إن تشارلز محظوظ حقاً.»

وحول وجهه ينظر إلى عينيها اللتين كانتا تحدقان فيه وقد بان فيهما كل ما تشعر به نحوه من نفور وعدم ثقة. فقالت له: «سأقتلك إذا أنت سببت أي ضرر لتشارلز.»

فرفع حاجبيه وهو يبتسم لها ساخراً ثم يقول: «لو كان

ينوي الزواج بك لفعل ذلك منذ وقت طويل، كما تعلمين. فأنت، بانتظارك هذا، إنما تضيعين وقتك، وهذا شيء مؤسف.» وتأملها بنظرات عميقة، ثم أضاف بلطف: «إنني واثق من أن ثمة رجال كثيرين يسعدهم أن يساعدوك على نسيان تشارلز. وقد اتطوع أنا نفسي لذلك.»

فتوهج وجه مارتن وتقبضت يداها، ولكنها لم تشأ أن ترضيه بالإجابة أو الدفاع عن نفسها. وتذكرت نصيحة تشارلز لها مرة بأن اعطاء أي تفسير لشخص ما يمنحه القوة، وأن تستعمل ذلك لما يخدم غرضها، وبكل تقتير. وهكذا تركت برونو فالكوشي يتصور أنه أصاب الحقيقة، فقالت وهي ترمقه بنظرة باردة: «هل لك أن تنعطف بالسيارة إلى اليمين؟»

قال وهو يتبع إرشادها: «ألا تعليق على كلامي؟»

فأجابت: «قف هنا من فضلك.» وكان هذا كل ما قالته له. فأوقف السيارة واستدار نحوها يفتح لها الباب، ولكنها كانت قد سبق وخرجت لتصفق الباب خلفها بعنف ثم تقول له: «إذا أنت سببت أي ضرر لتشارلز، فتذكر أنني سأجعلك تدفع ثمن ذلك.» ثم استدارت مبتعدة.

الفصل الثاني

بعد ذلك بعدة أشهر، كانت آني تقول لمارتن: «عليك أن تعترفي بأنه نافع جداً للمصرف.»

فأجابت مارتن: «أرجوك، لا أريد مزاحاً كهذا في هذا الوقت المبكر من الصباح.»

فقالت آني: «انك لا تحتملين أي مزاح يتعلق به. وهذه هي المشكلة.» كانت آني تصغرها بسنة، صغيرة الحجم، شقراء وجميلة جداً. وتابعت تقول: «ثم انك تملصت من سؤالي. إننا منذ سنوات، لم نر من يماثله نشاط. إن العمل في ازدياد منذ قدم علينا كما أن عملاءه قد تضاعفوا منذ ذلك الحين أيضاً.»

فحدقت مارتن في شاشة الكمبيوتر أمامها ترمق الأرقام عابسة وهي تقول لها: «أليس لديك ما تعملينه؟ إذا لم يكن، فأنا عندي، فقد اتصل تشارلز من منزله ليقول إنه سيؤدي عمله هذا النهار من المنزل، ثم إننا سنبدأ رحلتنا إلى روما غداً. إنني مشغولة جداً هذا النهار وقد أبقى في العمل إلى وقت متأخر في الليل، فانزلي عن مكتبي واخرجي من الغرفة يا آني.»

فأجابت هذه وهي تؤرجح قدميها وتضحك كطفلة: «لحظة واحدة. أريد أن أسألك شيئاً...»

فقالت مارتن بضيق: «وما هو؟»

فأجابت آني: «أترى لديه امرأة قد تركها في مكان ما؟

فهو يقول إنه غير متزوج ولكنه لم يخرج مع واحدة منذ مجيئه.»

فقالت مارتن: «لا أدري، وهذا لا يهمني، فهل لك أن تقفلي فمك بالنسبة لبرونو فالكوشي وتخرجي من مكتبي لكي أنهي عملي؟» كانت مارتن غالباً، ما تتمنى لو لم تعرف برونو. فهو هنا منذ أربعة أشهر ويمكنها أن ترى كيف يموج المكان حوله خصوصاً بالنسبة للنساء من الموظفات. فهن لا يسكتن عن الكلام عنه، نصفهن قد أحببنه، والنصف الآخر مفتونات به. ماعدا مارتن طبعاً، فقد ازدادت كراهيتها له الآن عما كانت عندما التقت به لأول مرة.

كانت قد أخذت تراقبه عابسة عندما أصبح مديراً وأخذ على الفور يسيطر على اجتماعات هيئة المدراء جاعلاً من نفسه مركز القوة في الهيئة، دافعاً تشارلز عن الصورة شيئاً فشيئاً.

وكان هذا ما خافت منه منذ البداية، ولكن تشارلز لم يستمع إليها في ذلك الحين، حتى ولا فيما بعد. فقد ابتسم برقة عندما اخبرته بأن برونو قد استلم بعض زبائنه، وقال: «لقد اقترحت أنا عليه ذلك يا عزيزتي. فأنا احاول أن أخفف عن كاهلي بعض الأعباء. ألا تذكرين انك سبق واخبرتني أنني أرهق نفسي بالعمل؟»

فقالت: «إنني لم أقل لك أن تتنازل عن بعض أفضل زبائنك لبرونو فالكوشي. كما أنك لم تخبرني قط بما تريد أن تفعل.»

فقال معتذراً: «كنت أعرف انك ستناقشينني في ذلك ستبدئين بإلقاء محاضرة عن موضوعك المفضل.»

فسألته وعيناها في عينيه: «ماذا تعني؟»

فأجاب وهو يضحك لتوهج وجهها: «اعني برونو. والآن، لا تنكري أن الضيق ينتابك كلما جاء ذكره.»

فقالت: «نعم، فأنا لا أثق به. وكل ما أتمناه هو ألا ترتكب غلطة خطيرة تجعله يمتلك كل هذه السلطة في المصرف.»

بعد هذا الحديث مع تشارلز بعدة أسابيع، جاء هذا الحديث مع آني التي جلست على مكتبها لا تريد التخلي عن ذكر برونو فالكوشي.

ومدت يدها تدفع آني عن مكتبها، فنظرت هذه إليها ضاحكة وهي تقول: «آه، إنني أراهن على انك مجنونة ببرونو أنت أيضاً، ولكنك لا تريدين أن تعترفي.»

فقالت مارتن بحدة: «إنني أفضل عليه دراكيولا.» وفي نفس اللحظة، فتح باب مكتبها، ليبدو برونو واقفاً على العتبة والفتاتان تحملقان فيه بذهول.

كان يقف مستنداً إلى الباب باسترخاء وقد بان الغموض في عينيه شبه المغمضتين، وهو يقول ببطء: «ما الذين يملكه دراكيولا ولا أملكه أنا؟»

فابتدأت آني تضحك لشعورها بالإرتياح لعدم غضبه من ناحية، وبالارتباك من ناحية أخرى لعدم تأكدها من مقدار ما قد يكون سمعه من حديثهما.

فقالت مارتن: «لا تحاول مضايقتي.»

فقال وهو يحدّق في عينيها: «ايمكنني ذلك؟»

فأخذت آني تحملق فيهما، من واحد لآخر، منذهلة تنتظر المزيد، بينما أجابت مارتن من خلال أسنانها: «كلا.»

فقال برونو مخاطباً آني: «ألم تكوني على وشك

الخروج، يا آني؟» فترددت مفضلة البقاء ولكن عيني برونو جعلتاها تندفع باتجاهه لتعبر الغرفة. وأخذت مارتن تتأمل برونو وهو ينظر إلى آني بعينين متألقتين، فقد كانت أشبه بملكة جمال صغيرة الحجم. وكانت تعرف كيف تحمل الآخرين على التحديق فيها أثناء سيرها، وكان برونو يحدق فيها الآن.

وتوقفت آني تبتسم له، ولم تر مارتن وجهها ولكنها رأت الطريقة التي كان برونو يرد بها على ابتسامتها. وقالت آني ضاحكة: «إن دراكيولا لا يملك شيئاً لا تملكه أنت.»

فانحنى برونو مكشراً عن أنيابه، مشبهاً بذلك دراكيولا مصاص الدماء، وهو يقول: «لماذا إذن لا أراك خائفة مني؟»

فصرخت آني ضاحكة ثم هربت من الغرفة، بينما استقام برونو في وقفته. وما أن قابلت مارتن نظراته الضاحكة ببرود، حتى استحال ضحكه إلى برود هو أيضاً، ثم تقدم نحوها بعد أن أغلق الباب خلفه.

تنبهت أعصابها تحذرها لشيء رأته في نظراته وهو يتقدم نحو مكتبها. وشعرت على الفور بالذعر من أن يمسك بها، فتوهج وجهها ثم كساه الشحوب، بينما انكمشت في كرسيها.

كان هو يراقبها متصلباً، ثم قال بهدوء: «يوماً ما، سأخبرك عن السبب الذي يجعلك لا تطيقين رؤيتي. عند ذلك ستكرهينني حقاً.»

فقالت: «ولكنني أكرهك فعلاً.» انطلقت هذه الكلمات من فمها قبل ان تستطيع تلافيها، فعضت شفتها ذاهلة. ما كان

لها أن تكشف مشاعرها. وشعرت بالذعر لفقدها اعصابها بهذا الشكل. فقد اعتادت أثناء العمل، أن تقابل رجالاً كانت تشعر نحوهم بالإحتقار والإشمئزاز، ولكنها كانت اكثر حكمة من أن تظهر لهم ما تشعر به نحوهم.

وقالت دون أن تنظر إليه: «إنني آسفة، إذ خرجت عن طوري. أرجو أن تنسى كلامي هذا.»

كانت تعرف ما يحدث لو أنه أخبر تشارلز بما قالت، إذ سيشعر تشارلز بالفزع لذلك، فهو يعلم بعدم ثقتها بابن عمته ولكنه يتوقع منها ضبطاً افضل لأعصابها والاحتفاظ بآرائها الخاصة لنفسها. وهذا ما كانت في الواقع، تفعله. وشعرت بالغضب من نفسها.

وتمتم برونو: «انني لا أنسى شيئاً مطلقاً.» كانت تعلم أن هذا صحيح، فقد سبق واكتشفت أنه يملك ذاكرة غير عادية. فهو يعرف كل شيء عن كل شركة عامة وكثير من الشركات الخاصة، كان يختزن في ذاكرته أدق التفاصيل، ليستخرجها عند اللزوم. وما يقوم به الكمبيوتر بإمكان برونو أن يقوم به بنفسه معتبراً إياها عبث اطفال.

قالت: «هذا عائد اليك.» كانت تعلم أنها ستدفع الثمن يوماً ما لخروجها عن طورها هذا. وانتابتها الشكوك في أنه من نوع الرجال الذين ينتقمون لما سلف من جراح. وكان هذا هو الباعث على قلقها لأجل تشارلز وهي تراه يضع فيه ثقته الكاملة. كانت خائفة من أن يجعله برونو يدفع ثمن معاملة أسرة ردموند لأمه. وازدردت ريقها وهي تحول نظراتها إلى شاشة الكمبيوتر وتسأله محاولة تغيير الموضوع: «هل اطلعت على آخر أنباء العملة اليابانية؟»

فهز كتفيه قائلاً: «إنها كما سبق واعتقدت بها تقريباً.»

فقالت بابتسامة حلوة: «نعم، افكارك صحيحة كالعادة.» فضحك. وشعرت هي بالغضب لعدم استطاعتها إغضابه. وتمنت لو يخرج من مكتبها فقد أفسد عليها صباحها، وقالت له ببرود: «إنني مشغولة قليلاً، فإذا لم يكن عندك شيء مهم لتقوله...؟»

فأجاب: «لقد اتصل بي تشارلز هاتفياً من بيته بالنسبة لمؤتمر روما...»

فقالت: «نعم؟» ذلك أنها كانت ستصحب تشارلز إلى مؤتمر المصارف العالمي في روما، صباح اليوم التالي. وكانت تتطلع بشوق إلى هذه الرحلة، فقد مضت مدة طويلة منذ أن قامت آخر مرة برحلة ممتعة كهذه حيث تبتعد عن المكتب وبرونو فالكوشي فترة.

كان برونو يقول ببرود: «لقد نصحه الطبيب بالبقاء في الفراش لمدة اسبوع، ولهذا فلن يكون في امكانه الذهاب.»

فسألته مارتن بقلق: «ماذا حدث؟ هل هو مريض؟»

فهز رأسه وهو يجيب: «إنه متعب فقط كما أظن. ربما بداية انفلونزا. لا شيء مهم. ولكن طبيبه يرى أنه بحاجة إلى راحة تامة. لقد طلب مني أن اشرح لك الأمر وأعبر لك عن أسفه إذ تفوته رحلة روما.»

فقالت مارتن وهي تشعر بخيبة أمل: «طبعاً. إنني متفهمة لوضعه. إن هذا لا يدهشني، فقد كان يبدو مرهقاً تماماً في الأيام الماضية. انه بحاجة حقاً إلى إجازة طويلة، ولكن اسبوعاً في الفراش سيكون له تأثير سيء. إذن، فالأفضل أن أن ألغي كل شيء ولكنني لا أظن أنهم

سيعيدون إلينا ثمن التذاكر، أما الفندق فإلغاء الحجز فيه سهل طبعاً.»

ومدت يدها إلى الهاتف، ولكن برونو امسك بمعصمها وهو يقول: «كلا، لا تلغي شيئاً، فالرحلة ما زالت قائمة وكل ما في الأمر أنني سأحتل مكان تشارلز.»

فتصلب جسدها وهي تقول: «أنت؟»

لوى شفتيه قائلاً: «آسف. إنني اعلم أنني لا يمكن أن احتل مكان تشارلز في نظرك، ولكن عليك أن تحتملي مرافقتي أياماً قليلة، لأن تشارلز يريد تمثيل المصرف في المؤتمر. وقد وضع حديثاً عن الاحتمالات والتوقعات بالنسبة إلى السياسة النقدية، ويريدني أن أقرأه في المؤتمر.»

كانت مارتن تعرف كل شيء عن ذلك الحديث، فقد سبق وتحدث معها تشارلز عنه على أعلى مستوى، وكان بإمكانها أن تلقيه بنفسها باسمه لو كان طلب منها ذلك، ولكن تشارلز لم يضع حتى هذا في اعتباره. وكان برونو يتأمل تفاعل افكارها هذه على ملامحها، فقال: «إن نظرة تشارلز في المرأة التي تعمل في المصارف هي رجعية قليلاً، أليس كذلك؟»

فأجابت بمرارة: «انك تشاركه نظرته هذه.»

فقال: «انك تظنين بي الأسوأ دائماً، اتراك تستمتعين بهذا؟ انني، في الحقيقة، لست كما تظنين. ولكن كان واضحاً أن تشارلز كان مريضاً فلم استطع ان اتجادل معه. بالمناسبة، هل لديك كل الوثائق اللازمة من تذاكر وغيرها؟»

فأومأت برأسها وهي تنهض واقفة فتحضر الملف الذي

يحوي تلك الوثائق، ثم تناولها له وهي تقول: «ينبغي تغيير الاسم في التذكرة، وسأقوم بذلك.»

فقال وهو يستدير ليخرج: «لا تتعبي نفسك فسيقوم سكرتيري بذلك. سأراك غداً على متن الطائرة.»

فحدقت في أثره وهي تفكر في إلغاء سفرها، ولكن ولاءها لتشارلز جعلها تنبذ هذه الفكرة. لا بد لشخص ما من أن يكون رقيباً على برونو فالكوشي.

تقابلا في مطار هيثرو، وكانت الفوضى تعم المكان، ذلك أن جميع الطائرات كانت متأخرة بسبب الضباب في منطقة لندن. فاشترى برونو ومارتن بعض الصحف والمجلات، وشربا الكثير من القهوة السوداء المرة، محاولين أن يتجاهلا صراخ الأطفال، وضيق الأولاد، والكراسي غير المريحة التي كانا يجلسان عليها.

وأخيراً انقشع الضباب وابتدأت الطائرات تتحرك. وكانا قد تأخرا ساعتين عن السفر إلى روما.

ولم يجدا عند وصولهما، السيارة التي كانا طلباها، وهكذا كان عليهما استئجار سيارة اخرى. وكان ثمة صف طويل من المسافرين كما كان المطر ينهمر. ونظرت مارتن مكتئبة إلى سماء روما القاتمة الملبدة بالغيوم.

وعند وصولهما إلى فندقهما، كانت مارتن لا تكاد تستطيع الوقوف على قدميها، وقد تملكها الضجر، فأخذت المفتاح ثم صعدت إلى غرفتها مباشرة، والتي كانت غرفة بديعة رائعة الاثاث وتشرف على المدينة.

كان المطر لايزال ينهمر بغزارة فاستندت مارتن إلى عتبة النافذة برهة، تحدق في المناظر الرائعة تحتها، وأخذت

تنقل نظراتها من بناية إلى أخرى. كانت روما مدينة صاخبة، رغم المطر، مزدحمة بالناس والسيارات. فالناس يتصايحون ويتشاجرون بصوت عال، وكانت تسمع وقع الخطوات على الأرصفة القديمة. وما لبثت أن اغلقت النافذة بعد أن شعرت بالبرد.

كان برونو اقترح بأن يتناولا العشاء الساعة الثامنة. وكان أول موعد اجتماع للمؤتمر الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي وذلك في فندق آخر يدعى الاكسلسيور.

استلقت مارتن في سريرها بعد خروجها من الحمام، ملتفة بمعطف الحمام السميك وفوقها لحاف. وكانت احلامها مشوشة كشوارع روما.

استيقظت من نومها فزعة على طرق حاد على الباب. كان الليل قد أرخى سدوله والغرفة غارقة في ظلام قد بدده نوعاً ما، اضواء الشارع. وازداد الطرق على الباب فنهضت من سريرها متعثرة لتفتحه.

كان برونو واقفاً مرتدياً بذلة المساء. كان يبدو كما رأته أول مرة. بالغ الأناقة رائع الرجولة بجسمه المتين وعينيه المتألقتين ما جعل الوهن يدب في كيانها، منذ تعرفت إليه، انتابها نحوه شعور من العداء والحذر، يدفعها إلى ذلك شعور غريزي دفين اكثر عمقاً من أن تدرك كنهه.

قال: «ألم تلبسي بعد؟ لقد قلنا إن العشاء في الساعة الثامنة.» وكانت عيناه وهو يحدثها، تحومان حول شعرها الأحمر المشعث ووجهها المتضرج.

قالت متلعثمة: «لا بد أن النوم غلبني. سأنزل إلى المطعم بعد عشر دقائق.» ثم أغلقت الباب بسرعة قبل أن يلاحظ

ارتجافها، فأشعلت النور ثم عادت تستلقي على سريرها لحظة، تفكر في امرها. ما الذي حدث لها؟ ألعلها أصيبت بعدوى جرثومية؟ عدوى من تشارلز؟ فهي تشعر بالحمى والرجفة ووهن الساقين.

ولم تشأ أن تلبس وتسوّي شعرها وتتناول العشاء مع برونو وحدهما. لم تشعر بالقوة الكافية لذلك. ولكن كيف يمكنها الخلاص من هذا وهما هنا معاً يمثلان المصرف بالنيابة عن تشارلز؟ انها لا تستطيع التخلي عن مسؤوليتها تجاه كل ذلك، بهذه البساطة.

وابتدأت ترتدي ثيابها، فاختارت ثوباً اخضر قاتماً من القطيفة. كان ثوباً رسمياً أنيقاً، ولكنها ما أن ارتدته حتى غيرت رأيها بعد أن حدقت في نفسها في المرآة، فقد كان الثوب ملفتاً للنظر، فاتناً. وكان تشارلز دوماً يحب هذا الثوب، وهذا هو السبب في وضعه في الحقيبة. ولكن ارتداءه وهي مع تشارلز، شيء وارتداءه وهي مع برونو هو شيء آخر. وكانت هذه الفكرة ترسل رجفة الخوف إلى جسدها، ونظرت إلى ساعتها ثم ارسلت آهة. لقد كان الوقت أضيق من أن يسمح لها بتغيير الثوب هذا، خصوصاً ومازال امامها تسوية شعرها وتزيين وجهها.

وعندما نزلت إلى ردهة الفندق وجدت برونو جالساً إلى مائدة في زاوية الغرفة يحدق فيها، فسرت رجفة في كيانها وقد تذكرت أول ليلة تعارفا فيها، إذ رأت انعكاس صورتيهما في الزجاج الأسود خلف الاستراحة، لقد بدا لها هذا، في ذلك الحين، ذا معنى خاص، وفكرت في أنه يشكل خطراً سيحيط بها وبتشارلز والمصرف.

ولكن كان هنالك شعور آخر، شعور اكثر غموضاً، لم تواجهه بعد.

ولكنها تواجهه الآن وهي تعترف لنفسها، بينما تشمل جسدها الرجفة، بأنها خائفة منه، وأنه يروّعها.

وفكرت في وجه تشارلز الشاحب وعينيه المتعبتين والحزن الذي يغلف قلبه، ثم شعرت بالكراهية نحو برونو فالكوشي. لقد بدا لها تشارلز عاجزاً أمامه لا يملك القوة ولا الرغبة في المقاومة إذا هو هوجم، ولكن برونو لن يمكنه تحطيم تشارلز إذا هي وقفت له بالمرصاد. وهكذا أزاحت مخاوفها جانباً ثم تقدمت نحوه.

كان شعرها الأحمر يتألق كلهب قاتم على ضوء الشموع، ووجهها البيضاوي وعينيها الخضراوين وفمها الممتلىء، وجسدها الرشيق الذي يختال في ذلك الثوب، كان في كل ذلك ما جعل ضجة المكان المؤلفة من الحديث والضحكات وقرقعة الأطباق والأكواب جعلها تتلاشى فجأة عندما مالت الرؤوس تحدق فيها رغم أن مارتن نفسها لم تلحظ شيئاً من ذلك وهي تكافح للسيطرة على مشاعرها.

كانت عينا برونو هما فقط ما كان يشد اهتمامها. ولم تكن تنظر إليهما ولكنها كانت تشعر بهما منصبتين عليها بشكل تسارعت له خفقات قلبها.

وقف يحييها بينما جلست هي على كرسي بجانبه، ومالبثت الضجة العادية أن عادت إلى المكان. وقال لها: «يا له من استقبال حافل. ماذا تريدين أن تشربي؟»

فنظرت إلى كوب المياه المعدنية الذي أمامه المضاف إليه عصير الليمون، ثم قالت: «أريد نفس الشيء.»

فطلب لها ما أرادت، ثم ناولها قائمة الطعام قائلاً: «اختاري ما تريدين، فالطعام هنا جيد تماماً.»

نظرت في قائمة الطعام وقد شعرت فجأة بالجوع، وقالت: «إنني لا أعرف نصف انواع الطعام هذه، هل يمكنك أن ترشدني إلى نوع لذيذ منها؟ إنها بالإيطالية طبعاً.»

فاقترب منها ومال برأسه نحوها يقرأ معها القائمة، ثم قال: «إنه الفطر مع السمك. وأنا أحبه جداً.»

فقالت بسرعة وقد توترت اعصابها وهي تشعر بقربه منها بهذا الشكل: «هذا حسن.» وحاولت الإبتعاد عنه ولكنه عاد يقترح عليها نوعاً آخر من طعام إيطالي مميز قائلاً، إن عليها أن تجربه ولو مرة لأنه مشهور في روما. ثم أضاف: «أثناء وجودك في إيطاليا، لا بد لك من المجازفة والإقدام ولو مرة واحدة في حياتك.»

فتوتر جسدها وقد أدركت ما يلمح إليه بكلامه هذا. فقالت: «إن المجازفات لا تتلاءم مع اعمال الصيرفة.»

فقال ببطء: «بل تتلاءم. ان إقراض المال هو مجازفة بحد ذاته. وكان عليك أن تدركي هذا. انت اشتغلت عند تشارلز مدة طويلة، وهو معذور حيث أنه متوسط في السن، أما أنت...»

فردت عليه بغضب: «إن تشارلز ليس متوسطاً في السن، إنه فقط في الأربعينات من عمره.»

فضحك ببرود وهو يقول: «إن هذا هو السن المتوسط.»

فقالت: «حسناً، ولكنه مازال...» وسكتت فجأة لا تدري ما تقول، فتابع هو يكمل كلامها: «مازال جذاباً؟ أهذا ما تريدين قوله؟ إنني أعرف انك تحبين كل ما يتعلق به، ولكنني لا

أدري ما الذي يجذبك إلى رجل كان في الجامعة حتى قبل أن تولدي. أتراه يذكرك بأبيك؟ أم أن ما يهمك منه هي أمواله؟ لقد خطر لي هذا قبل أن اعرفك جيداً، ولكنني الآن اعرف انك لست مادية إلى هذه الدرجة. كلا، إنه تشارلز نفسه، اليس كذلك؟» وكان يراقب توتر ملامحها عن قرب. وهو يتابع: «انك في مشكلة حقيقية، يا مارتن. فثمة فجوة واسعة بينكما. انك ستندمين إذا بلغ تشارلز من الحماقة بحيث يقبل ما تتلهفين لإعطائه.»

فتوهج وجهها واستدارت إليه ثائرة وعيناها تتقدان غضباً وهي تقول: «كيف تجرؤ؟» وابتلعت بقية الكلام وهي ترى النادل يتقدم نحوها. بينما التفت برونو نحوه يسأله وقد بان عليه البرود التام: «حسناً، أتريد ان تعرف طلبنا؟» ثم أدلى إليه بما يريدانه دون أن يعاود سؤال مارتن، ما كان حرياً بأن يغيظها لو كان الظرف مختلفاً ولكنها الآن كانت تعلم أنها ما كانت لتتمكن من الكلام بصوتها المرتجف هذا.

وما أن ابتعد النادل، حتى كانت مارتن قد صممت على قول ما ينبغي عليها قوله لبرونو، ولكن ما أن همّت بذلك، حتى تقدمت سيدة نحو مائدتهما، وقبل أن تقول شيئاً كان العطر الثقيل الذي يفوح منها يلفهما آخذاً منهما الأنفاس.

صدر من السيدة صوت دافىء يهتف: «عزيزي برونو.» وسرعان ما كان برونو يقف وهو يبتسم وأخذت مارتن تراقب ببرود سلامهما الودي. كانت السيدة في الثلاثينات من عمرها، قد جمعت شعرها الأسود إلى الخلف بعقدة ضخمة من الدانتيل.

وكانت بشرتها سمراء لامعة كالذهب، بينما جسدها

المعتدل مليء بالاستدارات والإنخفاضات بشكل بدا لمارتن اكثر من اللزوم. وكانت المجوهرات تتألق حول رقبتها وذراعيها وأذنيها واصابعها. وفكرت مارتن بجفاء في أن هذه المرأة كانت تعتمد بملابسها هذه اجتذاب الأنظار اليها ليس إلا.

وكانت الطريقة التي كانت تتبادل بها الترحيب مع برونو تؤكد أنهما كانا صديقان ذات يوم. هل هذا اذن هو النوع الذي يفضله من النساء؟

وبدا البرود في نظرات مارتن. إن كل التفاصيل الدقيقة من شخصيته كانت مهمة إذ تخبرها بالمزيد عنه. فربما ستساعدها في هزيمته فيما لو كان يخطط شيئاً ضد تشارلز. ولكنها لم تكن تتوقع أن تراه منجذباً إلى امرأة بهذا الشكل.

بعد ذلك بلحظة ادارها برونو ليقدمها إلى مارتن قائلاً: «انجيلينا، أقدم إليك زميلة لي من لندن، مارتن آرشر. مارتن، أقدم إليك زوجة أحد اصدقائي القدماء، انجيلينا فابري.»

فابتسمت مارتن ببرود وأدب وهي تمد يدها إليها، فصافحتها السيدة الأخرى بمثل ابتسامتها الباردة وهي تتأملها بنظرات تنطق بالفطنة والدهاء، ثم سألتها بلغة انكليزية تشوبها لكنة إيطالية قوية: «هل تشتغلين في اعمال المصارف؟ نعم، يبدو عليك انك امرأة عاملة، هذا واضح. لما لا، مادام هذا يوفر لك كل احتياجاتك؟ بعض النساء لا يشعرن بالحاجة إلى الزواج هذه الأيام، على كل حال.»

حافظت مارتن على هدوء ملامحها، ولكنها كانت تدرك ما في كلمات تلك المرأة من إهانة واستعلاء.

وهنا تدخل برونو بينهما بلطف، وقد بدا عليه الاستمتاع بالعداوة السريعة التي اشتعلت بين المرأتين، تدخل قائلاً: «أظن أن اصدقاءك على وشك الخروج يا أنجيلينا.»

فاستدارت تنظر إلى مجموعة من الحضور واقفين عند الباب، فلوحت بيدها وهي تومىء قائلة: «نعم، يجب أن اذهب يا عزيزي. هل سنراك أثناء وجودك هنا؟ عدني بذلك.»

فأجاب: «سأحاول جهدي. ابلغي سلامي إلى كارلو واخبريه انني سأتصل به هاتفياً. ان لدي الكثير من العمل أثناء المؤتمر، لسوء الحظ، ولكنني لن اكون مشغولاً في يومنا الأخير هنا، فربما نستطيع، عندئذ، اللقاء.»

فقالت: «يجب أن تأتي للعشاء، ياعزيزي. نسّق الوقت مع كارلو. إلى اللقاء.» ثم أومأت لمارتن بنفور وابتعدت.

عاد برونو إلى الجلوس وهو يرمق مارتن بنظرة هازلة: «حسناً، يبدو انك وانجيلينا لم تنسجما، إن هذا مؤسف، فهي امرأة دافئة القلب...»

فقاطعته: «هذا ما لاحظته.»

فضحك بصمت وهو يقول: «حسناً، هكذا هي انجيلينا، فهي لا تعني شيئاً، انها دوماً مبالغة في تصرفاتها، مهما كانت طبيعة هذه التصرفات.»

فسألته: هل يعلم زوجها بأنها... مولعة بك بهذا الشكل؟»

لم يعبأ بلهجتها اللاذعة، بل أجاب وعينيه تلتمعان سخرية: «كارلو؟ إنه يحبها بالشكل الذي هي عليه... إن

زواجهما سعيد جداً. وهي أم رائعة. لهما أربعة صبيان وابنتان. كما أنها ربة منزل ممتازة. ان كارلو رجل محظوظ جداً وهو يدرك ذلك.»

حدقت فيه مارتن بعد إذ لم تعد واثقة من طبيعة علاقته بتلك المرأة، وتمنت لو تعرف الحقيقة عن ذلك، وعن كل جوانب حياته. أي نوع من الرجال هو برونو فالكوشي؟

بعد ذلك بدقائق، أحضر العشاء، وكان الطعام ممتازاً.

ابتدأ بهما الحديث، في البداية، عن المؤتمر، وعندما تقدم بهما الليل قل حديث مارتن. كانت تشعر بدوار حالم، وسرت الحرارة في عروقها. وكان برونو يراقبها بعينيه المغناطيسيتين وهما يتناولان القهوة.

نظرت إلى ساعتها وهي تتابع قائلة: «أظن أن عليّ ان اكون هذه الساعة في الفراش، إذ علينا أن نستيقظ باكراً فإن امامنا يوماً حافلاً بالعمل.»

ودون سابق انذار، فاجأها بطلب يدها للزواج. لم تدر بما تجيبه، فقد انعقد لسانها وأحست بالاضطراب يعصف بها. سألته: «هل تعني ما تقول؟ كيف وعلى أي اساس تطلب مني الزواج؟ لا بد أنك تهذي.»

أجابها: «لا. لست اهذي. وأنا أعي جداً ما أقول. أشعر برغبة قوية بك، كما انك رقيقة وتشبهين فتاة احلامي، كما ادرك مشاعرك الحقيقية نحوي وهي عكس ما تحاولين إظهاره لي، وأخاف ان نرتكب عملاً أحمق نندم عليه. لا تخافي، لا بد ان الحب سيأتي، وبسرعة.»

اعترضت قائلة: «ولكن...»

قاطعها بقوله: «لا تقولي، ولكن. هيا... هيا بنا.» ودون

اي يترك لها أي فرصة لمزيد من التساؤلات، أمسك بيدها مسرعاً متجهاً بها نحو منزل رجل دين، الذي ذهل ما إن عرف انهما طرقا بابه في هذه الساعة المتقدمة في الليل لهذا الغرض. طلب منهما الانتظار حتى صباح الغد، وكادت مارتن توافقه على ذلك، إلا أن برونو ألح على رجل الدين ان يزوجهما فوراً. وهذا ما حصل بعد ما أحضر شاهدين على عقد الزواج.

وعند عودتهما، وحال وصولهما إلى باب المصعد، أخذت مارتن تتوقف عند الأبواب الرئيسية لتتأمل الليل في روما، قالت له: «لقد توقف المطر عن الهطول. ولكن ما تمنيته بعد الظهر هو أن أقوم بجولة حول المدينة سيراً على الاقدام، ولكنني لم استطع ذلك تحت هطول المطر.»

فقال: «لِمَ لا تقومين بنزهة قصيرة الآن؟»

فأجابت: «إن الوقت متأخر جداً، كما أن معطفي ليس معي.» ولكنها أثناء كلامها هذا كانت تتجه نحو الباب شاعرة بالإغواء رغم تعقلها.

فقال وهو يفتح الباب: «ليس من الضروري أن نبتعد في سيرنا. بل نقف قليلاً على الدرجات العريضة التي تحيط بالفندق.»

ووجدت نفسها خارج الفندق في ذلك الليل الخريفي الدافىء. وكان المطر قد غسل الشوارع والأبنية، والنجوم تتألق فوق اسطح أبنية روما، بينما كان الهلال يسبح بينهما.

فنظرت حولها وهي تتنهد قائلة: «يا للروعة.» وكان الجميع قد خرجوا من بيوتهم مغتنمين فرصة انقطاع المطر

لكي يستمتعوا بالسير. كانت الشوارع حافلة بالناس يتمشون ويتحدثون.

سألها: «هل أنت سعيدة يا حبيبتي بزواجنا؟ أرجو ذلك. فأنا سعيد جداً.»

أجابته: «أجل... واعدك بانني سأقوم ما بوسعي على أن يكون زواجنا ناجحاً.» وارتجفت لاحساسها بالبرد.

قال لها: «لا ينبغي أن تصابي بالبرد، ضعي سترتي فوق كتفيك.» فنظرت حولها بدهشة وهي تضع سترته حولها، وسألته: «وماذا عنك أنت؟ ألا تشعر بالبرد في هذا القميص؟»

فهز رأسه قائلاً: «لا تهتمي لذلك. إنني متين الجسم. اتريدين التفرج على الواجهات؟ ما علينا سوى أن نهبط هذه الدرجات العريضة.»

لم تعرف كيف حدث ان شعرت بأن عداءها له قد تبخر، كما ان تشارلز غاب عن وعيها، فقد غمرتها شاعرية هذه الليلة الرومانية. ولم تعرف كيف وافقت على الزواج منه في لحظة طيش!

سمعت، وهي تمر بمدخل متجر مظلم، همساً في الداخل. كان ثمة شخصان مراهقان في الظلمة، فتى نحيل يرتدي الجينز، وفتاة صغيرة ترتدي تنورة وكنزة حمراء، وكانا يتحدثان بود. وما أن رأت مارتن هذا المشهد حتى ابتعدت ومضت تسير بجانب برونو. وكان هو قد رأى ذلك المشهد كذلك، فنظر إلى مارتن فوجدها ترتجف وكأن برداً اصابها. وهي تقول متلعثمة: «إنني... علينا... الأفضل أن نعود إلى الفندق.» واستدارت نحو الفندق فلحق بها، ولكن

ما أن مرا بمدخل متجر آخر حتى أمسك بها فجأة دافعاً إياها إلى الداخل.

فنظرت إليه بغضب وهي تصيح محتجة لأسلوبه هذا، وأخذت ترتجف وقد سرى اللهب في شرايينها ما جعلها عاجزة عن الحركة، وعن فهم ما يحدث لها. ذلك أنها فوجئت تماماً بزواجها السريع هذا ولم تستعد له نفسياً. كانت تأمل أن يكون أكثر رقة معها ولكنه يبدو أنه نسي نفسه.

ابتعدت عنه وقد توهج وجهها، وركض غلام مراهق مجتازاً المدخل الذي يقفان فيه. فرأيا حقيبة نسائية في يده. وقبل ان يتمكن برونو ومارتن من الحراك، كانت جموع من المارة تركض خلف الغلام وهم يصيحون بغضب باللغة الإيطالية. ودوّت صفارة بوليس قريباً منهما. واستدار الغلام داخلاً عطفة شارع والجموع تتبعه، وسرعان ما تلاشت ضجة الملاحقة تلك. أشاحت مارتن بوجهها عن برونو، تبخرت الآن كل حرارة تلك المشاعر التي كانت تغمرها، فشعرت فجأة، ببرد شديد.

قال لها برونو بلهفة جعلت جسدها يتصلب: «تعالي نتابع سهرتنا في غرفتي يا مارتن.»

فاستدارت إليه قائلة وقد شحب وجهها: «إنني اشعر بالإشمئزاز، اتعلم هذا؟ لقد جعلتني أذهل بك وانجرف معك بشكل مفاجيء في مشروع زواج لم اسمع بأغرب منه في حياتي. جعلتني اضعف أمامك وأوافقك على طلبك حتى دون ان تمهلني وقتاً لأفكر بالأمر. لقد كان هذا هدفك طوال الوقت، حتى كدت تنجح. أليس كذلك؟»

ساد صمت عميق، استحالت اثناءه عيناه إلى مثل برودة

الثلج، ثم قال ببطء وسخرية معترفاً بتهمتها هذه له: «ولكنك استجبت لهذا، وتزوجتني الآن. حتى انني لم أبذل جهداً يذكر لإقناعك على كل حال، بعد كل تلك السنوات التي انتظرت فيها أن يحس تشارلز بك، تملكك شعور بالإحباط وأنت ترين نفسك تسقطين بين يديّ كالفاكهة الناضجة.»

فرفعت يدها تسدد إليه صفعة تفاداها هو بسرعة، لتقع يدها على حافة نافذة المتجر، وهي تشهق ألماً، وأزاحت سترته من على كتفيها تاركة إياها تسقط على الأرض. وما أن انحنى ليلتقطها، حتى انطلقت راكضة وهي تتمالك دموعها، وتقاوم مشاعرها. وبعد ذلك بدقيقتين كانت قد وصلت إلى الفندق. ولم تعرف ما إذا كان برونو قد لحق بها أم لا. ووجدت المصعد واقفاً فدخلته، وما أن أصبحت في غرفتها حتى انخرطت في البكاء.

الفصل الثالث

تناولت مارتن فطورها في غرفتها. لقد أمضت ليلة تعيسة ولكن عنايتها بوضع الزينة على وجهها أخفت معظم آثار ذلك، وارتدت طقماً رمادياً داكن اللون أنيقاً ذا سترة قصيرة وتنورة مستقيمة، فوقها قميص أبيض، كما جمعت شعرها الأحمر الداكن إلى الخلف حتى لا يكاد يظهر. لقد كانت تريد أن تبعد بنفسها عن أن تلحظها الأعين، وخاصة أعين الرجال الذين كانوا سيحضرون المؤتمر ببذلاتهم المشابهة لطقمها هذا.

كان ثمة سيارة ستاتي في الثامنة والثلث لتأخذها، هي وبرونو، إلى فندق الاكسلسيور لحضور افتتاح المؤتمر، وخرجت مارتن من غرفتها في الثامنة والربع فوصلت إلى ردهة الفندق في نفس الوقت الذي كان فيه السائق يوقف فيه السيارة. وبعد ذلك بلحظة، ظهر برونو بالغ الأناقة في بذلته الداكنة وقميصه المخطط بالأحمر والأبيض وربطة عنق خمرية اللون. وفوق البذلة كان يرتدي معطفاً أسود من الكشمير تركه مفتوحاً.

فألقت عليه نظرة باردة وهي تقول: «صباح الخير.»

فأجابها برونو بمثل لهجتها: «صباح الخير.»

جلسا في المقعد الخلفي جنباً إلى جنب وكل منهما ينظر إلى الشوارع الصاخبة دون أن يتبادلا الكلام.

كانت مارتن تنظر متأملة، إلى الشوارع المزدحمة بالمارة، والأبنية الأثرية في كل مكان.

يقولون إن المدن هذه الأيام أصبحت متشابهة، ولكن ذلك القول لا يتضمن روما التي كانت، في رأي مارتن، لا تشبه اي مدينة أخرى وقعت عليها عيناها.

كان برونو مستنداً بظهره إلى الزاوية بجانبها، تاركاً جسمه يتمايل مع حركة السيارة. فقاومت الرغبة في أن تنظر إليه وهي تتذكر ما حدث بينهما الليلة الماضية.

ازدردت ريقها وهي تلقي بأنظارها بعيداً وقد شعرت بالدماء تجري حارة في عروقها، كيف سمحت له بأن يتصرف معها بذلك الشكل؟

وشعرت لدى وصولهما إلى الفندق، بالارتياح، ولكن كان عليهما أن يمرا بمركز الأمن اولاً حيث أبرزا هويتهما والمستندات التي يحملانها.

ابتدأت الجلسات في الساعة التاسعة، وكان ثمة مئات من المراسلين قد جلسوا صفوفاً متراصة في هذه الجلسة الافتتاحية يستمعون إلى خطب طويلة ألقاها أشخاص غاية في الأهمية عن أحوال النقد العالمية، ولكن في العاشرة والنصف، تفرقوا جماعات في الغرف الأصغر للمناقشة وتناول القهوة.

وبينما مكثت مارتن في قاعة الجلسات العامة، إنخرط برونو مع أفراد احدى المجموعات الذين كانوا يناقشون معدل احتياط المال وعواقب التحايل عليها، وقد استمعت مارتن إلى سلسلة أحاديث عن الأسواق المالية، وعن قروض دول العالم الثالث وديونها ومخاطر تضخمها.

كان الغداء بطريقة المقصف حيث يقف الشخص ويختار انواع الطعام التي يريدها فيضعها في طبقه ثم يفتش عن

مكان يجلس فيه. وهكذا حملت هي طبقها الذي وضعت فيه أنواعاً لذيذة من السلطات، ثم اتجهت إلى مائدة كان لا يزال يوجد حولها مقاعد خالية، وهكذا وجدت نفسها تجلس بجانب شخص تعرفه ويدعى جيرهارد فون ايسنبرغ، وهو شاب جذاب في الثلاثينات من عمره، وكان مراقباً للمؤتمر ممثلاً المصرف الألماني جيرمان باندس بنك.

وهتف بها محيياً: «ما أجمل أن أراك ثانية يا عزيزتي، هل تشارلز هنا معك؟»

فأجابت: «كلا، لقد أصيب بالانفلونزا في آخر لحظة ما منعه من السفر.»

فقال: «يا للمسكين تشارلز.»

كان قد تعارفا في لندن منذ عام في حفلة استقبال أقامتها السفارة الألمانية، وقد خرجت معه مرتين أثناء اقامته في لندن حيث ذهبا إلى المسرح مرة، وإلى التزلج مرة اخرى حيث كان هو لامعاً في ذلك يقابله عجزها التام عن التزلج، فقد اعتاد التزلج منذ طفولته على الأنهر والبحيرات المتجمدة قرب منزله في المانيا، كما قال، داعياً إياها إلى زيارته في موطنه يوماً ما.

كان تشارلز يعرف عنه كل شيء، فقال إنه كان فتى ثرياً جداً من أسرة ألمانية عريقة. وكان جيرهارد أشقر اللون، بارداً نوعاً ما وبالغ الحذق. وكانت علاقتهما قصيرة إذ اقتصرت معرفتهما ببعضهما البعض على أسبوع واحد، فهي لم تكد تبلغ حد الصداقة، ولكنها كانت مسرورة برؤيته حقاً.

وقال لها: «يجب أن نحاول الجلوس جنباً إلى جنب في القاعة الرئيسية.»

فأجابت: «ولكن المقاعد مفروضة منذ البداية.»

هز كتفيه قائلاً: «إنني واثق من أننا يمكن أن نغير مقاعدنا إذا طلبنا ذلك، فقد سئمت الأشخاص المرافقين لي والذين ليس عندهم موضوع يتحدثون فيه سوى المال، أتعرفين الشخص الذي تجلسين معه؟»

وكان مقعدها بجانب برونو، فأجابت: «إنه زميل لي. وأنا أفضل الجلوس معك إذا كان هذا ممكناً.» ولم تقل إنه زوجها.

فقال بشيء من غطرسة طبقته: «إن كل شيء ممكن.» وابتسم لها متابعاً: «والآن، حدثيني عن أخبارك، هل هنالك رجل في حياتك؟»

فهزت رأسها قائلة بتردد: «ليس حالياً، وأنت، ألم تقابل فتاة أحلامك بعد؟»

فضحك قائلاً: «مازلت آمل في ذلك، ولكن حتى الآن ليس لي حظ.»

فقالت: «ربما إرضاؤك صعب.»

فقال هازلاً: «لقد نشأت على توقع الأفضل دائماً، ولا شك أن كلامك صحيح، ولكن لا بأس، فأنا مستمتع بحياتي هذه، فأنا حر، وعازب، أما الحب فشائع، كما يقولون في التلفزيون.»

فضحكت وهي تسأله: «وهل تشاهد التلفزيون طيلة الوقت؟»

فأجاب: «طيلة الوقت، وفي المنزل أفتح التلفزيون بينما البرنامج الموسيقي عالي الصوت، فهذا يساعدني على التفكير ويجعلني ابقى مستيقظاً أثناء الليالي الطويلة التي تعقد فيها الجلسات.»

فقالت مفكرة: «لا ادري كيف كان الناس يعيشون قبل اختراع تسجيل الموسيقى.»

فقال ببساطة: «لقد كان لأهلي فرقة موسيقية خاصة بهم وذلك في القرن الثامن عشر.»

فقالت ذاهلة: «ما أغرب هذا!»

فعاد يقول: «إن أبي مازال يحب ذلك النوع من الموسيقى فهو يحب الاستماع إلى موتسارت، وأنا استمع إلى الموسيقى العصرية، ولكن المشكلة هي أنني أحب موسيقاه بينما يكره هو موسيقاي.»

كانت مارتن تستمع إليه وهي تأكل على مهل. وكانت قد أنهت قهوتها عندما أخذ الحاضرون يتجمعون في القاعة من جديد، إذ أن المؤتمر سيعود إلى الانعقاد بعد ربع ساعة. فنظرت إلى ساعتها وتنهدت قائلة: «لقد آن أوان العودة، سأراك فيما بعد.»

ونهض الاثنان، وانحنى جيرهارد يحييها وهو يقول: «قابليني في الاستراحة قبل العشاء، الساعة السابعة، اتفقنا؟»

فأومأت برأسها قائلة: «اتفقنا.» وعندما استدارت للذهاب وقعت عيناها على برونو جالساً إلى مائدة قريبة يراقبها بعينين عدائيتين فشعرت بصدمة شملت كيانها. وتمالكت نفسها لتتابع طريقها بوجه شاحب.

بعد الظهر كانا، هما الاثنان، جالسين في القاعة الرئيسية جنباً إلى جنب، حيث أن المقاعد كانت مرقمة مسبقاً، وكان على كل شخص أن يجلس في المكان المعد له. وحاولت مارتن تركيز أفكارها على الاجتماع،

لتتجاهل وجود برونو بجانبها، ولكنها لم تستطع ذلك.

لقد كانت تحس بكل حركة منه على كرسيه، وبكل مرة يقلب فيها صفحة من منهاج المؤتمر، وبكل حركة من رأسه، حتى أنها وجدت نفسها مرة تستمع إلى ايقاع تنفسه، فغضبت من نفسها.

لماذا كان هذا يحدث لها؟ لقد عملت معه شهوراً في لندن، وكان تكرهه وترتاب فيه، فما الذي جعله يحتل أفكارها الآن بحيث لا تستطيع نفيه من ذهنها؟

وشعرت بالارتياح عندما انفضَّ الاجتماع اخيراً بعد أن انتهى عمل اليوم، وابتدأ الجميع يخرجون من المكان عائدين إلى غرفهم. فقال برونو: «إن سيارتنا في الانتظار.» فأومأت وهي تتبعه إلى ردهة الفندق ومن ثم خرجا إلى السيارة حيث صعدت هي إلى المقعد الخلفي.

أخذ برونو يتحدث بشكل عفوي عن آخر حديث استمعا إليه، بينما كانت هي تتساءل متى بامكانها أن تخبره بأنها ستجلس إلى جانب جيرهارد أثناء تناول العشاء.

وفي فندقهما، استقلا المصعد معاً، فقد كانت غرفتهما في نفس الطابق ومتجاورتين كذلك.

وعندما وصلا إلى باب غرفتها، قالت مارتن فجأة: «بالمناسبة، تلقيت دعوة من صديق لمرافقته أثناء العشاء هذه الليلة.»

فتوقف برونو وقد تصلب وجهه وهو يجيب: «الصديق الذي رأيتك تتناولين الغداء معه؟»

فأجابت وقد بدا التمرد في عينيها: «نعم.»

فقال ساخراً: «انك سريعة في اتخاذ الاصدقاء.»

فردت عليه قائلة: «إنني أعرف جيرهارد منذ وقت طويل، فقد عرّفني تشارلز عليه في لندن السنة الماضية.»

فابتسم متهكماً وهو يقول: «آه، طبعاً، من المفروض إذن أن تكوني لطيفة معه مادام صديقاً لتشارلز.»

فقالت: «من المؤكد أن تشارلز يتوقع مني ذلك. فجيرهارد يعمل في باندس بنك.»

فقالت: «وهل يتوقع منك ايضاً أن تذهبي إلى جناحه في الفندق؟»

مزقت هذه الكلمات أحشاء مارتن كالسكين، فاحمر وجهها ثم شحب وجمدت في مكانها لحظة للمفاجأة، ما لبثت بعدها أن أخرجت مفتاحها لتفتح به الباب، ولكن برونو لم يكن قد انتهى من حديثه بعد، فتابع يقول: «لأن الطريقة التي كان ينظر بها إليك كانت تدل على ما هو مصمم عليه بعد استراحة ما بعد العشاء. لقد كان بامكاني من مكاني الذي كنت جالساً فيه، أن أراه كيف كان يتأملك.»

فقالت وهي تحاول ادخال المفتاح في القفل بيدين مرتجفتين: «إن عقلك لا يسير الا في الطريق الخاطىء.»

أجاب: «إنه الطريق الذي يتبعه معظم الرجال، خصوصاً مع امرأة تبدو مثلك.»

وأخيراً استطاعت أن تفتح الباب فدخلت وهي تقول له من فوق كتفها: «من حسن الحظ ان كل الرجال ليسوا مثلك.»

فقال: «حسناً، لا تقولي إنني لم أحذرك.»

واستدار مبتعداً نحو غرفته، فصفقت الباب بعنف وهي ترتجف غضباً.

وفكرت مستغربة، لماذا مازال محتفظاً بغرفة خاصة له

في الفندق. ما معنى هذا الزواج الذي تم وكل منهما منفصل عن الآخر، ليس هذا فقط، بل ويتصادمان دائماً.

اغتسلت، ثم اخذت تفكر في ما عليها ان ترتديه، لقد أحضرت معها ثوبين للمناسبات فقط، احدهما طويل لحفلة الرقص الرسمية التي ستلي المؤتمر. وهذه المرة كان عليها أن تعيد ارتداء الثوب الذي ارتدته مساء امس حيث أن عليها أن ترتدي كل ثوب مرتين، ولكنها، لأمر ما، لم تستطع ان ترتدي ذلك الثوب الأخضر المخملي مرة اخرى.

ذلك أنها في كل مرة سترتدي هذا الثوب، بعد الآن، سيذكرها ذلك بتلك اللحظات التي أمضتها مع برونو في مدخل المتجر المظلم ذاك.

وهكذا ارتدت الثوب الجورجيت الأسود، ووضعت حول عنقها عقداً من اللآلىء، ووضعت فوق جفنيها ظلاً اخضر ثم صبغت شفتيها بلون اسمر ضارب للحمرة، وبعد ذلك وقفت أمام المرآة تتأمل شكلها غير واثقة من نفسها.

كان ثوبها الأسود يماثل الأخضر المخملي في الأناقة. واستدارت تتهيأ للخروج وهي تدرك أنها قد تأخرت ولم تشأ انتظار برونو، فاستأجرت سيارة وذهبت عائدة إلى فندق المؤتمر حيث وجدت جيرهارد ينتظرها في الاستراحة عندما وصلت في السابعة تماماً.

كانت عيناه الزرقاوان تجولان عليها وهي تتقدم نحوه، ماذكرها بما سبق وقاله برونو لها من أنه كان يتأملها مراراً. لقد كان جيرهارد يحدق فيها حقاً ولكنها لم تر في نظراته ما ينفرها منه. وقف يحييها وهو يقول: «أشكرك لحضورك، إن كل الرجال سيحسدونني هذه الليلة لأنك

مرافقتي. وهذا الثوب بالغ الاناقة وتبدين رائعة فيه.»

فجلست وشكرته على إطراءه هذا. سألها عما تريد أن تشرب. طلبت عصير برتقال ممزوجاً بالمياه المعدنية.

كان العشاء لذيذاً، وقد حرص جيرهارد على تسليتها، وكان يمكن ان تمضي وقتاً رائعاً لو لم يكن الحظ السيىء قد جعل مجلس برونو مواجهاً لها على المائدة التالية، فكان عليها، طيلة الوقت، أن تتجنب النظر إلى ناحيته. كانت نظراتها تنصب عليه مباشرة، وفي كل مرة كانت أعينهما تتقابل، كانت تشعر بدوار وعدم توازن حتى لتخشى على نفسها من السقوط.

كان هذا مزعجاً باعثاً على الضيق، وزادت مخاوفها من أحاسيسها، فقد كانت تتوقع أن يخف تأثيره عليها، كلما ازدادت رؤيتها له، ولكن ذلك لم يحدث. بل بالعكس، كان الأمر يزداد سوءاً. وكان التأثير يستمر مدة أطول، فكان فمها يجف بينما تزداد خفقات قلبها، ومن ثم ينتابها الدوار، فكانت تحول نظراتها عنه بسرعة. وهكذا استمرت هذه المشاعر الغريبة حتى وجدت من الصعب عليها أن تستمر في التظاهر بالاستمتاع بما يقوله جيرهارد. فكانت بحاجة على الدوام إلى التمسك بشيء صلب، حافة المائدة مثلاً، كرسي أو أي شيء يمنحها القوة على التخلص من هذه الدوامة المخيفة التي تدور فيها أحاسيسها.

وشعرت بالارتياح عندما انتهى العشاء وعادت إلى الاستراحة حيث تركت جيرهارد يبحث لها عن مائدة ويحضر لها شراباً خفيفاً من النعناع. ومن ثم أخذت ترشفه ببطء لمدة نصف ساعة. وكان قد انضم اليهما مجموعة من

موظفي مصرف داتش بنك اكبر مصارف المانيا، كانوا جميعاً يعرفون جيرهارد، الذي كان رياضياً معروفاً.

إستندت مارتن إلى الخلف في مقعدها وهي تستمع دون أن تتفوه بكلمة، خصوصاً عندما كانوا ينسون وجودها أحياناً فينخرطون في الحديث باللغة الألمانية التي كانت تعرف منها القليل الذي لم يكن كافياً لمتابعة أحاديثهم السريعة.

وفي الساعة الحادية عشرة، ظهر برونو بجانب مائدتهم، فتصلب جسد مارتن حال رؤيته، ونظر بقية الرجال اليه باسمين وابتدأوا يتحدثون معه بطريقة جعلتها تدرك انهم يعرفونهم. وفهمت من حديثهم أنهم كانوا يسألونه عن السبب الذي جعله يترك سويسرا ليعمل في لندن. وهز برونو كتفيه وهو يرد عليهم بالالمانية شيئاً لم تفهمه وإنما جعلهم جميعاً ينفجرون ضاحكين.

ونظر ببرود إليها وهو يقول: «إن سيارتنا بالانتظار، هل أنت مستعدة؟»

فتحول جيرهارد إليها قائلاً: «يمكنني يا عزيزتي أن آخذك بنفسي فيما بعد، لا أظنك تريدين أن تذهبي الآن، أليس كذلك؟»

وقبل أن تقول شيئاً، أجاب برونو عنها قائلاً: «إن علينا جميعاً أن ننهض من نومنا باكراً، فالغد سيكون حافلاً بالعمل، هيا أسرعي يا مارتن فنحن لا نريد أن نجعل سائقنا ينتظر طويلاً.»

فوقفت متعثرة وقد احمر وجهها وهي تتمتم معتذرة لجيرهارد الذي بدا عليه الامتعاض ولكنه انحنى يحييها

وهو يقول: «ربما الحق مع صديقك هذا، فان أمامنا أعمال كثيرة غداً. حسناً، ليلة سعيدة يا عزيزتي وقد أراك غداً عند الغداء.»

تبعت برونو إلى خارج الفندق ثم صعدت إلى السيارة وهي تشعر بالارتياح إذ كانت قد ابتدأت تضيق بكل تلك الاحاديث عن المصارف، خصوصاً بلغة لا تحسن فهمها، ولكنها في نفس الوقت كانت تشعر بالضيق من تصرف برونو بإلقاء أوامره عليها والإجابة عنها.

وفي الطريق، قالت له: «هل لك أن تكف عن إعطائي الأوامر وكأنني سكرتيرة لك هنا؟ إنني مساعدة تشارلز، كما أنني زوجتك، أم أنك نسيت؟ ثم تشارلز يعاملني باحترام وأنا أريد منك نفس المعاملة.»

فقال: «لو لم أقطع عليك حفلتك الصغيرة تلك لبقيت هناك طيلة الليل ومن ثم لا يعود بوسعك المشاركة في أعمال المؤتمر غداً. تذكري أنني سألقي حديث تشارلز في الساعة الحادية عشرة وعليك أن تكوني موجودة في حالة إلقاء أسئلة، فيكون علي استشارتك للإدلاء بوجهة نظر تشارلز فيها. فما أنا مكلف إلا بإلقاء الحديث وقد لا أعرف كل الأجوبة لما سيلقى علي من اسئلة والتي أظنك تعرفينها جميعاً، إذ أن هذا عملك أنت. أعني أن تعرفي كل ما يتعلق بتشارلز وآرائه.»

فقالت وقد احمر وجهها: «لا أريدك أن تتحدث معي بهذه اللهجة الساخرة.»

فقال ببطء: «إنني أقرر الوقائع ليس إلا، فاذا كانت لا تعجبك، ذلك لأنك لا تريدين مواجهة الحقيقة.»

كانت السيارة قد توقفت أمام الفندق، فخرجت منها ثم اتجهت إلى الردهة حيث أخذت مفتاح غرفتها ثم استدارت نحو المصعد. وكان برونو قد سبقها إليه، ولكنها تجاهلته مشيحة عنه بوجهها.

وصل بهما المصعد إلى حيث غرفتهما حيث سارا متجهين إليهما وهي في المقدمة، وفتحت باب غرفتها ولكن قبل أن تغلقه خلفها كان برونو قد وضع قدمه على العتبة، فاستدارت إليه وهي تقول بتوتر: «ماذا...؟»

فقاطعها: «إننا بحاجة إلى تبادل الحديث، قبل المؤتمر. واقترح أن نتناول الفطور معاً غداً صباحاً في الساعة الثامنة إلا ربعاً.»

فقالت: «إنني أفضل تناول الفطور في غرفتي.»

فالتمعت عيناه بغضب وهو يكرر: «الثامنة إلا ربعاً عليك أن تكوني هناك.»

فقالت: «أخرج قدمك من أمام الباب.»

فقال: «هل تريدينني أن أفقد أعصابي؟»

فأجابت ساخرة: «وماذا لو حدث ذلك؟» أيظن أن بامكانه أن يخيفها لكي تطيعه؟

ولكن سخريتها لم تعجبه، فقال وقد احتقن وجهه: «إنه أمر مضحك حقاً.»

فقالت بلهجة متمردة: «ولمعلوماتك الخاصة، انت كنت مخطئاً بالنسبة إلى جيرهارد، فقد كان غاية في التهذيب طيلة المساء. كان سيداً حقاً.»

فصدرت عنه ضحكة جافة وقال: «هذا لأنني جئت وأخذتك قبل أن تنتهي السهرة.» وقدحت عيناه شرراً فجأة

وهو ينظر إليها، ثم تابع قائلاً: «لو كنت عدت معه آخر الليل بهذا المنظر، فهو لن يوصلك إلى الباب فقط ثم يقول لك ليلة سعيدة. فهذا الثوب هو دعوة لأكثر من مجرد الرقص، وسينتظر منك أن تدعيه إلى الدخول.»

فاحمر وجهها لنظراته الوقحة، وشعرت نحوه بالكراهية، فقالت: «كان علي أن أصفعك.»

فقال: «حاولي، وبالمناسبة، فقد تحريت عن جيرهارد فون ايسنبرغ فعلمت أنه من أسرة ألمانية عريقة وقد ساعدته الرشوة على الوصول إلى مركزه هذا في مصرف باندس بنك، ولكنه لا يملك الثروة التي يملكها تشارلز ردموند.»

وكان هذا فوق ما تستطيع احتماله، وشعرت بالتعب، فقد كان يوماً مرهقاً. وهكذا أفلت منها زمام أعصابها، فرفعت كفها تهوي به على وجهه، ولكنه كان أسرع منها فقبض على معصمها جاذباً يدها إلى أسفل بعنف، جعل مارتن تسقط إلى الأمام، فانتابها الذعر وابتدأت تناضل لتبتعد عنه.

وفتح باب مجاور برز منه رأس رجل يستطلع، ربما ازعجته الضجة التي صدرت عنهما، وبسرعة، دفع برونو مارتن إلى الداخل ثم تبعها مغلقاً الباب خلفهما.

فهمست بعنف وهي ترتجف ثائرة: «أخرج.»

فابتدأ يقول: «مارتن...» ولكنها لم تشأ الاستماع فقاطعته: «إذا لم تخرج الآن، فسأصرخ.»

فقال: «إنك منفعلة جداً.» ففتحت فمها لتصرخ ولكن قبل أن يخرج من فمها أي صوت، كانت يده مطبقة على فمها

وهو يدفعها إلى الخلف بعيداً عن الباب. ولما لم تكن قد أشعلت النور بعد، وكانت الغرفة غارقة في الظلام، فقد كانت لا تستطيع رؤيته ولكنها كانت تقاومه بعنف كحيوان وقع في شرك. وفجأة تعثرت قدمها بقائمة كرسي ما جعلها تترنح إلى الخلف ثم تسقط ويسقط برونو قربها على السجادة.

وساد سكون ثقيل، تمكنت، من خلال شعرها، أن ترى ملامح غائمة من وجهه بينما عيناه السوداوان تتألقان في تلك الغرفة المظلمة كمصباح اشعل فيها النيران.

www.elromancia.com

الفصل الرابع

فتحت مارتن عينيها، وأجالت نظراتها حولها. ولكن برونو كان قد رحل. ولأول وهلة، خالت نفسها أنها كانت تحلم. ولكنها عندما جلست، وقعت عيناها على ورقة صغيرة ملقاة على الوسادة بجانبها، فمدت يدها إليها، كانت مكتوبة بخط يده، وكانت تقول باختصار (اطلب منك ابقاء زواجنا سراً. الفطور في المطعم الساعة الثامنة إلا ربعاً. ب).

كان هذا كل ما حوته الورقة. حتى انه لم يقل صباح الخير أو حتى وقعها باسمه. فقط، أول حرف منه. وتساءلت ماذا يعني بزواجهما سراً! هل كان يخجل بها؟ ستعلم كيف ترد عليه. وفي هذه اللحظة، تصاعد رنين الهاتف فقفزت من مكانها. ونظرت إليه وكأنه أفعى قد تلدغها، وفجأة، فكرت في أنه قد يكون هو، وقد اتصل بها ليقول لها كل ما لم يكتبه في تلك الورقة.

ورفعت السماعة قائلة بصوت أبح: «آلو؟» فسمعت صوتاً يقول: «صباح الخير يا آنسة. هنا الاستعلامات. الساعة الآن الثامنة إلا عشر دقائق.»

فشكرته وهي تضع السماعة. إنها لم تطلب منهم أن يوقظوها. لا بد أن برونو طلب منهم ذلك، حسناً، لقد كانت هذه فكرة حسنة منه. ولا بد أنه ذهب إلى غرفته مبكراً جداً كي لايراه أحد خارجاً من غرفتها ما يدل على شدة اعتباره

لها، ذلك أن كل نزيل في هذا الطابق كان في المؤتمر وبعضهم يعرفها، وفي هذه الحالات تلوك الألسن سمعة الشخص، وهي تتذكر كيف كان الأعضاء، في مؤتمرات سابقة، يلوكون سمعة الرجال والنساء

ولكنها ما لبثت أن فكرت بألم، أن أمرها مع برونو هو مختلف. فهو ليس مجرد قضاء ليلة معاً أثناء مؤتمر وسرعان ما تذهب في مطاوي النسيان... إنها زوجته.

وجلست جامدة على حافة الفراش وهي تحدق في تلك الورقة الجافة المختصرة، لا يمكن أن تكون هذه رسالة عاطفية.

كان بإمكانه أن يقول شيئاً عن الليلة الماضية، أو على الأقل وضع اسمه كاملاً مع كلمة حبي...

أترى الليلة الماضية تعني شيئاً بالنسبة إليه عدا عن اعتبارها غزوة سهلة؟ إنه لم يقل قط انه يحبها، ولم يقدم لها أي تعهد، ففي لحظة كانا يتشاجران أمام الباب، وفي اللحظة التالية كانا في حال هدوء تام.

وتوهج وجهها وهي تتذكر تلك اللحظات. وكورت الورقة ثم طوحت بها إلى آخر الغرفة. ما هذا الذي فعلته؟ انها لم تتصرف بهذا الشكل في حياتها من قبل. وتمنت لو أمكنها إعادة الساعة إلى الوراء لتمحو من حياتها زواجها البائس هذا وتلك اللحظات التي قضتها معه.

لم تكن عديمة التجربة فقد كانت في السابعة والعشرين من عمرها، وقد سبقت لها علاقتان، احداهما استمرت حوالي العام ثم انفصمت بموافقة الطرفين، أما الثانية فهي ما سببت لها من الحزن والآلام ما عاهدت نفسها بعدها أن لا

تتورط مرة أخرى بعلاقة قبل مضي وقت طويل جداً تنسى خلاله ما عانته.

واغمضت عينيها تستعيد الذكرى. هل من الممكن أن تتلاشى عواطفه تلك بهذه السرعة؟

آه، كيف سيكون بإمكانها مواجهته هذا الصباح؟ واصابها التفكير بالفطور معه، بالغثيان. أن تتناول الافطار معه، النظر إليه، التذكر، وإدراكها أنه هو أيضاً يتذكر...

وتذكرت أول انطباع احدثه فيها. الشكل الوسيم الذي يخفي عزيمة لا تقهر. كما أن له عيني قاتل، وذهن كومبيوتر، وكل هذا يجعل منه موظفاً ممتازاً، ولكنه زوج فاشل. هذا هو الرجل الذي سيطر على تفكيرها وامتلكه.

كيف عرف أن بإمكانه ذلك، كيف كشفت عن مشاعرها له؟ وشحب وجهها وشعرت بالغثيان فوضعت يدها فوق فمها، ثم ركضت إلى الحمام لتتقيأ. ثم عادت فجلست على الأرض وهي تلهث وفي يدها منشفة مبللة بالماء البارد تمسح بها وجهها. ولكنها لا تستطيع البقاء هكذا، فإن عليها النزول لتناول الفطور لأن بإمكانه الصعود إليها هنا لاصطحابها وهي لا تريده أن يعود إلى غرفتها، وجعلتها هذه الفكرة توشك على التقيؤ مرة أخرى. ونهضت تغتسل ثم ترتدي تنورة رصاصية اللون فوقها قميص ليموني وفوقهما سترة رصاصية. وسرحت شعرها على طراز فرنسي أنيق وزينت وجهها، ثم وضعت قرطين فضيين في أذنيها، ومن ثم نظرت إلى انعكاس صورتها في المرآة، لقد أرادت أن تبدو امرأة عاملة جادة. وهي لا تريد

أن يرى برونو فيها أي ضعف هذا النهار، لا، ولا في أي يوم آخر.

لقد كذبت على نفسها فترة طويلة إذ ما فتئت تقنع نفسها بأنها تكرهه بينما في الحقيقة كانت تكن له الحب خفية. لقد اشتعلت النار في كيانها الليلة الماضية، ولكنها انطفأت الآن ولم تخلف سوى الرماد والفراغ، أما الآن فهي تكرهه حقيقة وستحمل السلاح ضده من الآن فصاعداً.

وحملت حقيبة اوراقها والملفات ودفتر المذكرات. ثم رفعت رأسها وخرجت نازلة إلى غرفة الطعام، وعند الباب وقفت تزدرد ريقها. نعم لقد سبقها إلى الغرفة حيث جلس يرتشف العصير، ويقلب في صفحات مجلة اقتصادية.

كان هذا الصباح يبدو غاية في التجهم والصلابة، في بذلته الداكنة وقميصه الأبيض الناصع وشعره الأسود. لقد بدا وكأنه رقد هانئاً مرتاحاً طيلة الليل.

نظرت إليه وهو يضع كوب العصير جانباً، لدى دخولها، ثم اجفلت لذكريات الليلة الماضية وعضت شفتها حتى أحست بطعم الدم في فمها.

وضع المجلة جانباً وهو ينظر إليها متفحصاً وقد ضاقت عيناه. عم تراه يبحث؟ هل عن إشارة تدل عن مبلغ ما سبب لها من ألم؟ وتعمدت لذلك، أن تظهر له وجهاً جامد الملامح فرأته يقطب جبينه وقد بانت على وجهه خيبة الأمل. وفكرت وهي تتقدم نحوه بأنه إذا كان يتوقع مزيداً من التسلية والبهجة على حسابها، فهو مخطىء.

ووقف لها محيياً: «صباح الخير.» واقترب من المائدة

يمسك الكرسي لها لتجلس، ثم ألقى عليها إحدى نظراته الثاقبة وهو يسألها: «هل نمت جيداً؟»

ولم تخف عليها لهجته اللاذعة، وتمنت لو تصرخ، لو تضربه، ولكنها جاهدت للاحتفاظ بمثل جمود ملامحه وهي تجيبه قائلة: «نعم، شكراً. وأنت؟» وقبل أن يجيبها أقبل النادل يسألهما عما يطلبانه للفطور، وبعد ذهابه سألت برونو بلهجة متوترة: «على كل حال، ما الذي كنت تريد أن تتحدث عنه معي؟»

فأجاب: «عن رأيك في مناقشات المؤتمر أو عما سمعته حتى الآن.» كان يتحدث ببرود وكأنهما بالكاد يعرفان بعضهما البعض وتابع قائلاً: «لقد لاحظت أنك تدونين ملاحظات طيلة الوقت أثناء انعقاد المؤتمر.»

فقالت بصوت عال: «نعم، وهذا لأجل تشارلز.»

فلوى شفتيه قائلاً: «طبعاً.» وفجأة رمقها بنظرة لاذعة وهو يقول: «وهل دونت ملاحظات لأجل تشارلز الليلة الماضية؟»

فردت عليه همساً وقد شحب وجهها: «اخرس، اخرس.»

وعاد النادل يحمل إليهما الفطور الذي طلباه ويسكب لهما القهوة. كانت تراقبه وهي تشعر بالغثيان لمجرد فكرة تناولها لهذا الفطور ولكنها كانت ترغم نفسها على ذلك.

عليها أن تحتفظ بمظهر طبيعي تماماً فهي لا تريده أن يدرك إلى أي حد أضرّ بها.

وأعاد النادل ملء فنجان برونو قائلاً: «سأحضر لكما الخبز المحمص الآن.» وعندما ابتعد، قال لها برونو بصوت جامد: «أيمكنني قراءة ملاحظاتك، أم انها فقط لأجل عيني تشارلز؟»

فنظرت إليه خفية من تحت أهدابها وقالت بنفور: «أتعني إن كان ثمة شيء فيها يختص بك؟ كلا، لا يوجد ولن يوجد، فلا تقلق، إنني لن أخبر تشارلز بأي شيء يتعلق بك.»

فقال بصوت ذي معنى: «إنني متأكد من ذلك. ولكن ألم يخطر ببالك أنني قد أخبره أنا بنفسي؟»

فازداد شحوب وجهها، وأخذت تنظر إليه بازدراء مرّ وهي تجيبه قائلة: «هل كان هذا هو السبب في كل ذلك؟ هل كانت هذه خطتك؟ أن تسيطر علي وتحاول أن تمتلكني ومن ثم تدمر...»

فقاطعها يكمل جملتها ببطء وهو يلوي شفتيه: «أدمر حظك؟»

فقالت: «بل سمعتي. فأنا أعرف مبلغ طموحك، وأظن أنك ترى في شخصي ما يهدد خططك. ذلك أنني لو تزوجت من تشارلز سأقف في طريقك. لهذا، تزوجتني. أليس كذلك؟ ولكن حتى مع هذا لا أظنك تهوي إلى هذا الدرك بحيث تغويني في لحظة ضعف وتسيطر على تفكيري وتأخذني مبهورة إلى رجل دين ليعقد زواجنا. ثم تطلب مني أن يبقى ذلك سراً. انك سافل، حقير ولا أملك تفسيراً على ما حصل سوى نعتك بهاتين الصفتين.»

أصابه كلامها هذا في الصميم، فاختنق وجهه ولم يستطع أن يتفوه بكلمة.

وفجأة قالت له: «برونو، اريدك ان تطلقني الآن وقبل ذهابنا لحضور المؤتمر. لا اعتقد ان رجولتك وكرامتك تقبل بأن تبقى زوجاً لامرأة لا تريدك. فأنا أرفض استمرار هذه المهزلة الرخيصة. والا سأكشف الأمر للجميع. هل تفهم؟»

رأت الدهشة في عينيه، ونظر إليها بوحشية ثم قال: «تتحديننني؟ حسناً. ليس لك ان تقلقي. سنفعل ذلك الآن وقبل موعد المؤتمر، فأنا ارفض ان أكون زوجاً لامرأة تفكر بغيري. انك تحبين تشارلز ولهذا تصرين على الطلاق. ولك ما تريدين.»

ارادت الدفاع عن نفسها. ارادت إخباره أنها تحبه هو وان تشارلز ليس أكثر من صديق، ولكنها لم تفعل. ارادت سؤاله لماذا طلب أن يكون زواجهما سرياً ولكن كبرياءها لم يسمح لها.

وساد صمت مشحون، ليقول بعده برونو: «وماذا بالنسبة إلى ملاحظاتك؟ هل يمكنني الاطلاع عليها أم لا؟»

فأجابت: «لِمَ لا؟ ولكنها مكتوبة بطريقة الاختزال.»

فقال: «يمكنني قراءة الاختزال.»

فقالت بمرارة: «كان يجب أن أدرك ذلك. فأنت خبير في كل شيء، أليس كذلك؟».

فلمعت عيناه السوداوان، ولكنه أجاب بفتور: «لقد كنت التحقت بدورة أعمال، قبل دخولي الجامعة، تعلمت أثناءها الاختزال، والطباعة على الآلة الكاتبة والكمبيوتر وقد وجدتها مفيدة جداً.»

فقالت: «إن طريقتي في الاختزال غير واضحة. ألا يمكنك الانتظار إلى أن تطبع على الآلة الكاتبة؟»

أجاب: «كلا، إلا إذا كانت هذه حجة منك لرفض رؤيتي لها.»

أدركت أنه لم يترك لها خياراً في الأمر، ففتحت حقيبتها وأخرجت له دفتر الملاحظات تناولها له.

دسها في حقيبته وهو يقول: «سأقرأها اليوم ثم أعيدها إليك قبل أن نعود إلى لندن. والآن، هيا بنا نذهب لانهاء معاملة الطلاق قبل ذهابنا إلى المؤتمر.»

بدا الطريق إلى فندق الاكسلسيور طويلاً جداً. وكاد وجوده ملاصقاً لها في السيارة، يدفعها إلى الصراخ، وعندما ترجلا منها متجهين نحو مكان المؤتمر، تعثرت قدمها، فوضع برونو ذراعه حولها يمنعها من السقوط. شعرت بالعالم يدور حولها، فدفعته عنها وهي تنظر إليه مجفلة. فقال بحدة وقد بدا العداء في نظراته: «كفي عن النظر إليّ بهذا الشكل، فأنت بعد ما جرى بيننا هذا الصباح، في منتهى الأمان معي. فأنا لن أجرب معك حظي مرة أخرى. فليتفضل تشارلز إليك بعدما طلقتك.» وتركها وحدها ومضى مبتعداً عنها، فتبعته ببطء وهي تغالب دموعها.

كان إلقاء برونو لحديث تشارلز مؤثراً، استطاع معه أن يجذب اهتمام الجميع الذين وجهوا إليه عدة اسئلة استطاع الإجابة عليها جميعاً دون الحاجة إلى استشارتها.

وكانت مجموعة من النساء الأميركيات اللاتي كن يمثلن أحد المصارف التجارية الأميركية الكبرى، كانت تجلس خلف مارتن، وكانت هي تسمع تعليقاتهن الهامسة. فقالت واحدة منهن: «انه شخص ممتاز، أليس كذلك؟ وإني لأتساءل عما يمكن أن يكون رأيه في التداخلات الإقتصادية الدولية.»

فردت عليها أخرى بلهجة حالمة: «وأنا اتساءل عما يمكن أن تكون تصرفاته مع المرأة.» فانفجرت بينهن عاصفة من الضحك الخافت.

أما مارتن فقد شعرت بوجهها يتوهج. وشعرت بالسرور لعدم وجود من تعرفه قريباً منها فيسمع ما قيل ويرى احمرار وجهها. عند ذلك كل شيء سيكون واضحاً لهم.

مضى الوقت. وتناول جيرهارد غداءه مع مجموعة من أعضاء جمعية الصيرفيين الألمان، فلم تره سوى فترة قصيرة في أحد الممرات. وكان برونو مشغولاً هو أيضاً، ما جعلها تنجو من عذاب مرافقته. وعندما وصلت سيارتهما لم تر له أثراً، وهكذا عادت بمفردها إلى فندقهما.

كانت مارتن تتطلع بغبطة إلى الحفلة التي سينهي بها المؤتمر أعماله. ولكنها بعد ما حدث بينها وبين برونو، لم تعد تستطيع تحمل الذهاب إليها. وهكذا رفعت سماعة الهاتف وطلبت المطار حيث كان الجواب أن ثمة طائرة هذه الليلة إلى لندن وفيها مقعد فارغ. وسرعان ما حجزت لنفسها مكاناً على تلك الطائرة ثم حزمت أمتعتها ونزلت إلى ردهة الفندق، حيث تركت ورقة صغيرة لبرونو تخبره فيها بسفرها.

وبعد ذلك بساعتين، كانت على متن الطائرة في طريقها إلى الوطن.

استيقظت مارتن في الصباح التالي وهي تعاني من صداع شديد وحرارة عالية. وهكذا لم يكن عليها أن تكذب على تشارلز وهي تتصل به في منزله لتقول له: «لقد وصلت من روما قبل الانتهاء بليلة لإصابتي بالأنفلونزا. وقد ابتدأت بالقيء. والمرض في الفندق هو شيء مزعج. ان شيئاً لم يفتني من المؤتمر ما عدا الحفلة. وبرونو هناك لتغطية ما قد يحصل.»

وقد أبدى تشارلز عطفاً بالغاً وهو يقول: «لا تقلقي بالنسبة لشيء. واظنك قمت بالعمل الصائب، فأنا أيضاً أكره أن اكون مريضاً في الفندق.»

عند ذلك تذكرت أنه كان مريضاً قبل سفرها فسألته: «وكيف حالك؟ هل تشعر بتحسن؟» وتنهدت وهي تتمنى لو كان هو الذي سافر معها وليس برونو وأجابها: «سأعود إلى العمل نهار الاثنين. وأنا بخير. ربما قد التقطت العدوى مني. هل تشعرين بصداع؟»

فأجابت: «صداع رهيب.» ولكنها كانت تشك في أن صداعها هذا هو بسبب الأنفلونزا. ولكن تقيؤها عدة مرات هذا الصباح جعلها تدرك أن السبب ليس فقط لشعورها بالخزي مما حصل بينها وبين برونو كما سبق، وظنت عندما تقيأت ذلك الصباح، الذي استيقظت فيه لتجده قد رحل تاركاً لها تلك الورقة المختصرة. وكان تشارلز يقول: «حرارة عالية؟ عطش؟ رجفة؟»

فأجابت: «كل هذا أشعر به.»

فقال: «يبدو أنك مصابة بمثل ما سبق وأصبت أنا به، حسناً، التعزية الوحيدة هي أنه لا يستمر طويلاً. لازمي الفراش واستدعي طبيباً ولا تعودي إلى العمل قبل أن تستردي صحتك مائة في المائة.»

فقالت: «شكراً. لقد تركت لك دفتر ملاحظاتي عن المؤتمر مع برونو وهو سيسلمك إياها إذا كنت مستعجلاً. ولكن من الأفضل لك أن تقرأها بعد طباعتها على الآلة الكاتبة.»

فقال بحزم: «انسي كل شيء عن العمل يا مارتن، واهتمي بأمر شفائك فقط.»

وعند المساء تفاقمت حالتها. فلزمت الفراش وهي ترتجف تحت الأغطية السميكة بعد أن ابتلعت كثيراً من أقراص الأسبرين وشربت كميات كبيرة من العصير والماء. ولم تستطع تناول الطعام مطلقاً إذ كانت تتقيأ باستمرار.

وعندما عادت إلى العمل، بدت هزيلة الجسم شاحبة الوجه. وعندما دخلت مكتب تشارلز، نظر إليها هذا بإمعان ثم قال: «لقد كنت مريضة حقاً. إن منظرك فظيع.»

فضحكت قائلة: «اشكرك لهذا الإطراء. هل سلمك برونو ملاحظاتي عن المؤتمر؟ وهل طبعت على الآلة الكاتبة؟»

فأجاب: «نعم. وقد تصفحتها.» وتحدثا عن بعض النقاط التي نوقشت في المؤتمر، ثم ألقى عليها بعض الأسئلة، ثم قال: «خمني من حضر أمس إلى المكتب؟»

فسألته: «من؟»

فأجاب ضاحكاً: «جيرهارد. وقد اخبرني أنه صادفك في المؤتمر. وهو الآن في لندن مع مجموعة من موظفي باندس بنك حيث يقومون بحوار مع مصرف انجلترا، سنتعشى معاً اواخر هذا الأسبوع، وقد أخبرته أنني سأحضرك معي إذا عدت إلى العمل، هل لديك فراغ مساء يوم الخميس؟»

فأجابت: «عليّ أن اراجع مفكرتي، وسأخبرك فيما بعد.» ذلك أنها لم تكن واثقة من رغبتها في رؤية جيرهارد مرة أخرى. فإن رؤيته تذكرها بما حدث لها أثناء المؤتمر. ولكن ما هذه الحماقة؟ وهل بإمكانها أن تنسى وهي تعمل مع برونو تحت سقف واحد وتراه يومياً تقريباً؟ ثم ما الذي يجعلها تجافي جيرهارد؟ فليس له ذنب في ما حصل. فهو

لم يعرف ما حدث وكذلك لم يعرف أحد آخر. وتضرج وجهها راجية أن لا يعرف احد أبداً بذلك.

وعادت إلى مكتبها تنظر في مفكرتها، وهي تحدق في فضاء الغرفة متسائلة عما سيكون عليه شعورها عندما ترى برونو مرة أخرى.

رن جرس الهاتف، وكان المتكلم أحد مديري قسم توظيف الأموال، وكان يقول بصوت حزين: «مارتن. إنني أعاني من مشكلة مع أحد المتعاملين، وهو يهدد بسحب رصيده لأنه ليس راضياً عن الطريقة التي استثمر بها امواله، هل بإمكانك التحدث معه؟ شاركينا، أنا وهو، الغداء يوماً ما في الأسبوع القادم.»

فنظرت في مفكرتها ثم قالت وهي تتنهد: «لا بأس، يابيتر. عندي وقت نهار الجمعة. ما اسمه؟»

فأجاب: «اسمه ويدون.»

فقالت: «حسناً. أرسل إليّ ملفه مع كل التفاصيل عن الأسهم التي كنت اشتريتها له وماذا حدث بشأنها. أظننا نوفر له بعض المكاسب؟»

فأجاب بلهجة اعتذار: «حسناً، لقد صادفني سوء الحظ مرة أو اثنتين. انك دون شك، تذكرين تلك الشركة التجارية التي كنا نمولها في الربيع الماضي؟ بروجل، والتي كنت أنا اشتريت له بعض اسهمها. ولعلك تذكرين أننا كنا جميعاً نحاول اقناع عملائنا بشراء تلك الأسهم. ثم طبعاً، انهارت الشركة بعد فترة قصيرة.»

عضت مارتن على شفتها، فقد كان ذلك المشروع إحدى غلطاتهم إذ ما كان لهم أبداً أن يتورطوا فيه. وقالت: «لماذا

لم تحاول التخلص من تلك الأسهم لأجله، وتبدأ بشيء آخر؟»

فأجاب: «انك تعلمين أن هذه ليست طريقتنا، فإن تشارلز يريدنا أن نتشبث بالشيء صعوداً وانخفاضاً وليس مداومة البيع والشراء. هذه هي التعليمات الملقاة إلينا، وأنا ملتزم بها.»

فلوت مارتن شفتيها وقالت: «نعم يابيتر، ولكن هناك استثناءات لهذه القاعدة، احدها عندما يدير الشركة محتالون. وأنت تعلم جيداً ان رئيس تلك الشركة قد هرب بأكثر أموال الشركة. حسناً، سأدرس هذه المسألة وأرى ان كان باستطاعتنا تحسين الأمور. وليكن ذلك الغداء الأسبوع القادم لكي تكون لي فرصة للقيام ببعض التدابير.» وألقت السماعة، ثم ما لبثت أن استغرقت في دراسة الأسواق اليابانية، متفحصة الأسهم التي كانت في حوزتهم واسعارها هذه السنة، وذلك على شاشة الكمبيوتر أمامها. ذلك أنها كانت على موعد مع عميل ياباني عصر هذا اليوم، وكانت تريد أن تكون متأكدة من المامها التام بالموضوع الذي سيتحدثان فيه.

وعندما رأت برونو، كان وقت الغداء قد حان. وكانت خارجة من مبنى المصرف، عندما توقفت سيارة أجرة وخرج منها برونو متقدماً نحوها. وتقابلا على الدرجات. وقبضت مارتن على حديد حاجز السلم تستند إليه وقد تسارعت خفقات قلبها لرؤيته.

أومأ إليها محيياً بوجه جامد وهو يقول: «ها قد عدت إلى العمل، إذن؟»

فأجابت: «نعم.»

فقال ساخراً كمن لا يصدق ذلك: «لقد قال تشارلز انك كنت تعانين من الأنفلونزا.»

فرفعت وجهها تجيبه بلهجة من لا يهتم بما قد يظنه: «نعم، هذا صحيح.»

فلوى شفتيه متهكماً وهو يقول: «وأنت قد شفيت الآن وأصبحت طبيعية.»

كان حديثهما ظاهراً، لا غبار عليه لمن قد يسمعه، ولكن مارتن فهمت المعنى الخفي الذي يقصد، بما فيه من تهكم ونفور، فأجفلت ثم قالت وهي تحدق في عينيه بمرارة: «نعم.»

فقال ببطء: «لعله يسرك أن تعلمي أن تشارلز كان طوال الوقت يتحدث عن مبلغ افتقاده لك. يقولون ان الغياب يزيد من الأشواق، أليس هذا صحيحاً؟ وهكذا جاء توقيت مرضك ممتازاً كما يبدو.»

فلم تجب، وتابعت طريقها دون أن تلحظ حركة السير وازدحامها حيث تسير. ذلك أنها لم تره منذ اكثر من اسبوع، ولكنه لم يبرح ذهنها طوال الوقت، حتى الآن كانت عيناها لا تفارقان وجهه أثناء حديثهما، وكانت مشاعرها المتناقضة تسبب لها الدوار.

يبدو أن غيابها عنه قد احدث في قلبها شعوراً عنيفاً. وتمنت أن تخفف تلك المقابلة التي حصلت بينهما على الدرجات الخارجية للمصرف، من مشاعرها تلك عندما تراه مرة أخرى.

وقد رأته، في الواقع في مكتب تشارلز في اليوم التالي

حيث كان ثمة عدد من مديري الأقسام، وكان بإمكان برونو ومارتن ان يتجاهل الواحد منهما الآخر معظم الوقت دون أن يبدو ذلك مستغرباً.

ولم يبد أن احداً آخر لاحظ البرود الشديد الذي كان يسود الجو كلما تحدث الواحد منهما إلى الآخر. ما عدا تشارلز الذي لاحظ ذلك، ليأتي على ذكره فيما بعد، على انفراد، إذ قال يلومها بلطف: «ما الذي بينك وبين برونو؟ كنت أرجو أن تكون علاقتكما أفضل مما يبدو عليها، ألم تنسجمي معه أثناء وجودكما في روما؟ كنت أظن أن وجودكما معاً، بذلك الشكل، قد يحطم الجليد الذي بينكما، ولكن يبدو من الطريقة التي اصبحت مؤخراً تسود أحاديثكما معاً، أن الجليد اصبح أكثر سمكاً مما كان.»

فتوهج وجهها وهي تقول: «انني آسفة إذ يبدو هذا واضحاً. فأنا احاول دوماً أن اكون مهذبة معه.»

فقال: «آه، نعم. التهذيب موجود. ولكنني اعرفكما انتما الاثنين. ففي كل حين يتفق وجودكما معاً في نفس الغرفة، تنخفض حرارة الجو. انك تعلمين بنيتي نحوه يا مارتن... فهو سيجلس في كرسيي هذا يوماً ما، فحاولا أن تكونا صديقين.»

فأطلقت ضحكة مغتصبة وهي تقول: «توقف عن الكلام يا تشارلز وكأنك في الثالثة والتسعين من عمرك وليس في الثالثة والأربعين، إلا إذا كنت تنوي التقاعد في سن الخمسين، فمازال ثمة وقت طويل جداً قبل أن تؤول رئاسة المصرف إلى برونو.»

عند ذلك تقابلت اعينهما، فقطبت جبينها وقد واتاها

خاطر مفاجيء فسألته قائلة: «لا اظنك تنوي التقاعد، أليس كذلك؟» وافزعتها فكرة ذهاب تشارلز واحتلال برونو مكانه. ان عليها، عندذاك، أن تترك العمل في المصرف.

ولكنه قال: «ليس لدي، بالتأكيد، أي فكرة من هذا النوع، ولكنك لا تعرفين ما تخبئه الأيام، أليس كذلك؟ فالأفضل إذن أن تتخذي من برونو صديقاً.» وشعرت بألم، ان الأوان قد فات لهذا، فهي وبرونو لن يكونا صديقين أبداً. لقد سبق وكانا حبيبين لمدة قصيرة جداً... ولكنهما أصبحا الآن عدوين.

www.elromancia.com

الفصل الخامس

جاء شهر تشرين الثاني (نوفمبر) بالمطر والجو الكئيب، وتراكمت أوراق الأشجار المتطايرة على الأرصفة، وبدا الملل على الناس الذين كانوا يسرعون خارجين أو داخلين من وإلى المحلات أو المكاتب، وطار برونو إلى استراليا ونيوزيلاندا للاجتماع بمديري توظيف الأموال والمتعاملين مع المصرف الذين يعيشون هناك، ولالقاء نظرة على اسواق البضائع الاسترالية، والشركات الرئيسية والمناطق النامية.

لقد ساد التقلب الأسواق العالمية، ولم تكن الأسواق الاسترالية بمستثناة من ذلك، ولم يكن أحد يعرف ما الذي يحدث بالضبط في هذا الجزء من الكرة الأرضية.

في الليلة التي سبقت رحيله، كانت مارتن قد تأخرت بالعمل في مكتبها. وكان جميع الموظفين قد غادروا إلى بيوتهم.

توقفت عن العمل لتمسد عينيها المتعبتين، وتريح ذهنها من التفكير دون أن تنتبه إلى برونو الذي دخل بهدوء مقترباً منها.

ثم استدارت في مقعدها وهي تحملق فيه مجفلة، وهي تقول: «هذا أنت؟ لا تتسلل بهذا الشكل، فقد كاد قلبي يتوقف.»

فأجاب بجفاء: «وهذا ما لا نريده، أليس كذلك؟»

فشعرت بوجهها يتوهج، إن عليها أن تتوخى كامل الحذر حين تتحدث إليه، ذلك أن كلامه حافل دوماً بالمعاني الخفية. ولكنها قالت تغير الموضوع: «لماذا مازلت هنا؟ إن أمامك غداً رحلة طويلة، وكان عليك أن تخرج مبكراً.»

فأجاب: «كنت خارجاً لتوي، ولكنني رأيت نور مكتبك مضاء فجئت لأودعك. إنني واثق من أنك ستشعرين بالراحة لغيابي.»

كان هذا صحيحاً، ولكنها شعرت، في نفس الوقت باكتئاب يغلف قلبها. إنها ستفتقده بشكل هائل، ولكنها لن تعترف له بهذا. ورفع هو حاجبه ساخراً وهو يسألها: «أليس ثمة تعليق على كلامي؟ حسناً، لا حاجة بك لهذا. ولكن بما أنني سأخسر حفلة المكتب بمناسبة العيد، وكل المباهج والألاعيب التي ستتخللها، ومنها تعليق غصن الدبق، الذي يسمح بتقبيل كل من يمر تحته... فانني سآخذ قبلتي منك الآن.» وانحنى يقبلها بسرعة على جبينها قبل أن تدرك ما هو بسبيله. ولم يدم ذلك سوى لحظة واحدة وقف بعدها منتصباً وهو يقول وقد بدا العداء في عينيه: «يمكنك أن تصفعيني لفعلتي هذه بعد رجوعي إنما إياك أن تتزوجي تشارلز أثناء غيابي والا فستندمين للغاية.» ثم استدار خارجاً تاركاً إياها ترتجف وقد ملأها الاحباط، وعلى وشك البكاء.

بعد رحيله خالت أن المطر ينهمر يومياً. ولم تستطع أن تبعده عن ذهنها، خصوصاً في الليالي حيث كان الأرق يتملكها ساعات.

قال تشارلز وهو ينظر من النافذة إلى الجو الممطر المدلهم في الخارج: «إن برونو لمحظوظ. لولا طول الرحلة

وإرهاقها لذهبت في تلك المهمة بنفسي، ولكن ليس بامكاني القيام بمثل تلك الرحلة.»

فقالت: «إنني لم أسافر قط إلى استراليا.»

فقال: «لو كنت ذكرت هذا من قبل، لأمكنك أن تسافري مع برونو.»

فقالت بسرعة: «لم أكن أريد ذلك.» واحمر وجهها حين تلاقت عيونهما، فأسرعت تقول: «حسناً، لا أظنك تريدنا أن نغيب، نحن الاثنين في وقت واحد.»

فقطب جبينه مجيباً: «هذا صحيح، ولكنني أدركت الآن فقط أنك لا تحتملينه، أليس كذلك؟ هذا غريب فأنا أراه محبوباً، ولامع الذهن أيضاً، وفي غاية الفطنة. وإنني اتساءل لماذا لا يعجبك؟»

فأجابت: «ليس بامكاني أن أعجب بكل شخص.»

ثم غيرت الموضوع قائلة: «إن جواً كهذا يجعل الانسان يفكر في اجازات في مكان مشمس دافىء، أليس كذلك؟ إن الجزر الكاريبية لا بد أن تكون رائعة، وكذلك فلوريدا.»

فقال: «وماذا بالنسبة إلى ألمانيا.» فنظرت إليه مجفلة ثم قالت: «ولكنها ليست مشمسة. إنني أذكر ما كان أخبرني به جيرهارد عن فصل الشتاء هناك، وكيف كان يذهب إلى المدرسة إنزلاقاً على البحيرات المتجمدة.»

فقال: «نعم، أعرف ذلك. ولكن جيرهارد قد دعانا إلى زيارة باندس بنك.»

وفكرت مارتن قليلاً ثم سألته: «أدعانا نحن الاثنين؟»

فنظر إليها بمكر قائلاً: «أظن جيرهارد يريدك أن تكوني هناك، أليس كذلك؟»

فابتسمت قائلة: «لا أدري ماذا تعني.»

فرفع حاجبه قائلاً: «بل أنت تدرين أنه معجب بك، هيا، فأنت تعلمين أنك معجبة به أنت أيضاً.»

فقالت: «طبعاً أنا معجبة به.»

فقال تشارلز وقد أشرق وجهه: «إن بامكاننا هناك أن نقوم بشراء هدايا العيد، إذ يمكننا أن نمكث عدة أيام بعد انتهاء مفاوضاتنا مع جيرهارد بشأن علاقاتنا مع مصرف باندس بنك، حيث نذهب للتفرج على بعض المعارض الرائعة التي تقام في ألمانيا أثناء فترة العيد.»

فتألقت عيناها قائلة: «نعم، سنتمكن من قضاء وقت بهيج.»

فسألها: «أظنك ستمضين العيد مع أهلك كالعادة؟»

فأجابت: «إنني غير متأكدة، فأنا غالباً أذهب إليهم لقضاء العيد وكذلك لقضاء اسبوع أثناء فصل الصيف، فمنزلنا ابعد من أن يسمح لي بالذهاب لأجل قضاء عطلة نهاية الأسبوع، لهذا فعلي أن أبقى في البيت أسبوعاً على الأقل إذا أردت الذهاب.»

فسألها: «وهل يأتون هم إلى لندن؟ أين يذهبون لقضاء اجازاتهم؟» كان تشارلز يكثر، عادة، من سؤال الآخرين عن أحوالهم الشخصية، وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت منه رئيساً محبوباً وصديقاً طيباً. وتنهدت مارتن قائلة: «إن أبي لم يأخذ أجازة يوم واحد منذ سنوات، فهو مشغول دوماً في مزرعته، وكذلك أمي.»

كانت مارتن تحاول اقناع والديها دوماً بالحضور إلى لندن او بالذهاب معها لقضاء إجازة في بعض البلاد الأجنبية، ولكن هذا لم يحدث أبداً.»

كانت مزرعتهم الجبلية الواقعة على الحدود بين انكلترا واسكوتلندا قليلة الانتاج جداً، ولكن والدها كان شغوفاً بها، فقد كان يشعر بالسعادة وهو يستيقظ قبل طلوع الشمس، فيعتني بالماشية ضد الأمراض التي تتهددها، ويقوم بمئات الأشياء الصغيرة التي تحتاجها المزرعة على مدار العام.

كان أبوها جو آرشر في شبابه، رجلاً كبير الجسم، وقد انحنت قامته الآن قليلاً، ولكنه مازال طويل القامة بالغ القوة قد لوحت عوامل الطبيعة بشرته، ذا شعر احمر قاتم كثيف قد تخلله الشيب وعينين بنيتين. وقد عاش حياة قاسية ولكنها كانت الحياة التي اختارها بنفسه فلم يندم أو يشكو قط.

كما أن والدة مارتن لم تكن تشكو هي أيضاً، أو تظهر أي نوع من التذمر لخشونة حياتها اليومية هذه، فهي تبذل نفس الجهد الذي يبذله زوجها داخل البيت وخارجه.

لم يملكا قط مالاً يزيد عن حاجتهما، وكان هذا ما نبه طموح مارتن وجعلها تدرك أنها إذا شاءت أن تسير حياتها كما تحب، فان عليه أن تجد في دراستها، وهكذا نالت النتيجة التي تحتاجها. فاختارت أعمال المصارف مهنة لها إذ لم تكن تحب التعليم أو تزاول القانون أو أية مهنة أخرى، ولما كان خالها مدير مصرف محلي، فقد أخبرها أن العمل في المصرف هي مهنة جيدة للفتيات هذه الأيام.

وهكذا جاءت إلى لندن لتحظى بوظيفة في هذا المصرف، وساعدتها جدارتها في صعود سلم الارتقاء بسرعة مدهشة. فقد خلب لبها العمل مع الشركات الكبرى، حركة الاسهم، تأرجح النقد، سمسرة البضائع، صعود الدولار

ونزوله، المارك الألماني، الجنيه الاسترليني، الين الياباني، الفرنك. قد تبدو أعمال المصارف جافة بالنسبة لأولئك الذين اعتادوا على الروتين اليومي للبنوك المحلية، ولكن بالنسبة للعاملين في البنوك التجارية فهي مثيرة كالحب، خطرة كالقرصنة في البحار الهائجة، مدمرة للأعصاب كالقتال حتى الموت.

ومع مرور السنوات، نضجت مارتن بعيداً عن والديها إلى حد ما. كانت تحب أباها كثيراً ولكنها لم تكن تتفق معه تماماً. فقد كان ضيق النظرة إلى الحياة التي لم يكن يراها سوى من زاوية واحدة. ولم تكن تستطيع التحدث معه إذ لم يكن يفهم شيئاً عن دنياها التي تعيشها، ويتملكها الضجر من اقتصار الحديث على الماشية وأمراضها ونقص المعادن في العشب، وسعر الحمل في السوق. ولم يكن بينهما شيء يجمعهما ماعدا رابطة الدم.

حتى انه لم يقبل منها نقوداً حين أرادت مد يد العون لهما في الشدائد، رغم كل تأكيداتها لهما بأن في إمكانها إرسال مبلغ لهما كل شهر. لقد رفض أبوها ذلك قائلاً: «احتفظي بنقودك لنفسك يا فتاة.» وبعد سنين من العيش في تلك المزرعة المقفلة على العالم الخارجي، والتي تمكنت منه طريقة جامدة قديمة للحياة، ما جعل كبرياءه ترفض أخذ نقود من ابنته. ربما كان يأخذ النقود من إبنه، لو كان له ابن، ولكن ليس من فتاة ابداً.

وعندما ارسلت مارتن نقوداً إلى أمها سراً، جعلها أبوها تعيدها إليها، وكتبت إليها أمها رسالة أرفقتها بالمال تطلب منها أن لا تعود إلى ارسال نقود مرة أخرى.

كان جو آرشر يعيش تبعاً لمفاهيم اخلاقية معينة تعلمها في حداثته فلم يحد عنها، فهو لا يقرأ الصحف ولا يملك تلفزيون ونادراً ما يستمع إلى الراديو. كانت مارتن تعلم أن والديها مازالا يعيشان في عالم ١٩٤٠. فوالدها مثلاً سيصاب بصدمة عنيفة لو علم بما حصل بينها وبين برونو. فهو واثق من أنها متزنة وعاقلة وتنتظر رجلاً يتقدم إليها للزواج.

أما أمها فكانت امرأة رقيقة مرنة، ولكن لم يحدث قط أن ساندت ابنتها مرة ضد أبيها، وهي، مارتن، لا تنتظر ذلك منها في المستقبل. فماري آرشر هي من نوع الزوجات التي تقول: «أنا مع زوجي، مخطئاً كان أم مصيباً...» وهي في حوالي الستين من عمرها وان بدت اكبر سناً. كما كان شعرها الاحمر القاتم، كشعر ابنتها قد خطه الشيب.

كانت مارتن ترى كيف كان العمل الشاق يسلب أمها قوتها، فهي دوماً متعبة، كما أن الخطوط في وجهها تزداد عمقاً ما يجعلها اكبر سناً مما هي حقيقة. وفي كل مرة كانت تذهب فيها إلى البيت، كانت تحاول جاهدة أن تعض على لسانها فلا تقول شيئاً لأبيها عن أمها، ذلك لأنها كانت تعلم سلفاً أن تدخلها لم يكن ينتج عنه سوى استياء امها منها دون أن يفيد بشيء. والحقيقة هي أن الكفاح الطويل الذي جمع بين والديها طيلة حياتهما الزوجية قد أوجد بينهما نوعاً من الحب العميق الهادىء الذي لم يكن لشيء أن يغيره أو يضعفه.

وهكذا، وجدت من الأفضل لها أن تقلل من زياراتها إلى

البيت، حيث أن ذلك أحفظ للسانها من أن ينطق، كلما رأتهما، بقول ما لن يجدي.

وعادت تقول: «لقد كنت دوماً أحلم بقضاء العيد في مكان شاعري مثل فيينا.»

فقال تشارلز: «ولِمَ لا؟ إنني أنا كذلك أحب قضاء العيد في فيينا، ويمكننا الذهاب معاً.»

فنظرت إليه مجفلة، ثم قالت ضاحكة: «سيكون هذا رائعاً، أليس كذلك؟» ولكنها لم تأخذ الأمر جدياً، فهو لاشك مثلها يستمتع بأحلام اليقظة. وكانت قد شاهدت على شاشة التلفزيون برنامجاً رائعاً عن فيينا وسحرها وتراثها الفني، وجمال وغنى الطبيعة فيها. ولما عاد تشارلز يستحثها قائلاً: «دعينا نقوم بهذه الرحلة.» أدركت بأنه يعني حقاً ما يقول، وتابع هو: «إنني أكره قضاء العيد بمفردي، لقد دعاني بعض الأصدقاء لقضاء العيد معهم، ولكن قضاء العيد مع اسرة يشعرني دوماً بالانقباض، وأسوأ من ذلك المكوث في الفنادق. أما بالنسبة إلينا، نحن الاثنين، فما نحن سوى صديقين دون أي تعقد من ناحية أي منا، فما رأيك يا مارتن؟ هل تحبين الذهاب؟»

فترددت لحظة، ثم ألقت بالمحاذير في الهواء لتقول: «نعم، إنني موافقة.»

وجلسا يخططان للرحلة.

وفي اليوم التالي خرجت لشراء التذاكر وحجز الأماكن في الطائرة، فهما سيشرعان في السفر قبل العيد بثلاثة أيام، ليعودا بعد أسبوع، وسيمكثان في أحد افضل فنادق فيينا. وتملكها الابتهاج والاثارة ولكن كان هذا قبل أن

تنتبه إلى ظهور ما قد يشير إلى علامات حمل لديها. هل من الممكن أن تكون حاملاً من برونو؟ وهكذا ذهبت إلى الصيدلي حيث اشترت ما يمكن به أن تكتشف الحمل بنفسها. وكانت طريقة القيام بذلك شديدة التعقيد، ولكن كان عليها أن تتبعها، ذلك المساء، بدقة.

وكانت النتيجة إيجابية...

وجلست تحدق فيها بوجه شاحب وعينين زائغتين، إنها حامل من برونو، وشعرت، لهذه الفكرة، بالغثيان والرعب، أي طيش وغباء اعترياها؟ وتملكها ندم هائل، ما كان لهذا الزواج ان يحصل.

ولم تستطع، إزاء هذه الصدمة، أن تقرر ما عليها أن تفعل، إنها بحاجة إلى وقت تفكر فيه.

هل تحتفظ بالجنين وعندما تلده تدعي أنها احتضنته؟ ولكن فكرة الحمل تسعة اشهر وهي تقوم بعملها في المصرف ما يجعل الجميع يعلمون بأمرها، هذه الفكرة ملأتها رعباً. وخصوصاً إذا علم برونو بالأمر.

ذلك أنه لم يكن في نيتها إخباره إلا حين لا يعود بالمستطاع إخفاء ذلك، فقد كانت تعتبر أن القرار يعود إليها بهذا الشأن، فهو لاحق له بالطفل أبداً! خصوصاً بعد الطريقة التي تصرف بها معها. وتملكتها المرارة وهي تفكر في ذلك.

وعندما سافرت مع تشارلز في أواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) إلى فرانكفورت للقيام بسلسلة من الاجتماعات مع جيرهارد ومجموعة من كبار المتنفذين في المصارف، كانت ماتزال لم تقرر بعد ما عليها أن تفعله بالنسبة

لمشكلتها تلك، وكان منهاج عملهما حافلاً. فقد كان موضوع العملات الألمانية الشائك، وسوق النقد الأوروبية، على رأس اهتماماتهما للبحث. ولم يكن ثمة أمل في أن يغير الألمان سياستهم بهذا الشأن، ولكن هذه الاتصالات كانت مفيدة دوماً لخلق الجوّ المناسب بالنسبة للتطورات التي تحدث في المستقبل.

وعندما كان عمل النهار ينتهي، كان جيرهارد يأخذهما للتعرف إلى حياة فرانكفورت في الليل.

وكانا ينزلان في فندق (فرنكفورت هوف) وهو من طراز الفنادق الفخمة التي يفضلها تشارلز. وكان جيرهارد يحضر إليهما كل ليلة في سيارته الليموزين الفخمة مع السائق الخاص، وذلك لكي يأخذهما إلى العشاء.

كان تشارلز يدركه التعب مبكراً، فكان دوماً يلح على مارتن بأن تتابع السهرة من دونه، ولكنها لم تكن تستمع إليه، قائلة: «إن علي النهوض باكراً أنا أيضاً.» ثم تعود معه إلى الفندق. ولكنه في آخر ليلة لهما في فرانكفورت دخل مساء إلى غرفته ليرتاح قليلاً، ثم لم يخرج منها.

وهكذا كان على مارتن أن تخرج بمفردها مع جيرهارد للعشاء وقضاء السهرة جيث أخذها إلى حفلة موسيقية.

وفي طريق عودتهما إلى الفندق، سألها جيرهارد بصوت هادىء: «هل يمكنني قضاء وقت إضافي معك؟»

كانت هي تتوقع طلبه هذا منذ وصولها إلى هذه المدينة مع تشارلز، وكان هذا هو السبب الذي كان يجعلها ترفض البقاء معه بمفردها عندما يذهب تشارلز إلى غرفته،

وتوترت وقد احمر وجهها وهي تقول: «كلا، يا جيرهارد، إنني آسفة.»

فنظر إليها بعينين نفاذتين وهو يسألها: «أتعنين ليس هذه الليلة، يا مارتن، أم أنك لا تريدين هذا مطلقاً.»

فأجابت: «إنك تعلم أنني اكن لك مودة كبيرة يا جيرهارد، فأنت مهذب وجذاب للغاية، وقد كنت مضيفاً رائعاً، وقد استمتعت جداً بوقتي هنا...»

فقاطعها: «ولكن...» فلم تستطع مواجهة نظراته، فعاد يسألها: «هل هناك شخص آخر؟» فترددت قليلاً، ثم أومأت برأسها بالايجاب، فقال: «أظن بامكاني أن أخمن من هو.»

فرفعت إليه عينيها الخضراوين مذهولة، فقال بابتسامة ملتوية: «إنه برونو فالكوشي، أليس كذلك؟ لقد لاحظت ذلك عليكما في روما.»

فأجفلت... هل كان ذلك واضحاً إلى هذا الحد؟

وعاد جيرهارد يقول ببطء: «كان الأمر يبدو، عند رؤيتك له، وكأنك أصبت بصاعق كهربائي، ولكنني لم أكن متأكداً مما إذا كان ذلك ناتجاً عن حب أم كراهية، وهكذا فكرت...»

وهز كتفيه متابعاً: «ما هو المثل الذي تقولونه في انكلترا... إذا لم توجد المجازفة، لم يوجد الربح؟ إنك فتاة ذكية رائعة الجمال، ونادراً ما أقابل فتيات في مثل جاذبيتك.»

فاحمر وجهها وقالت بخجل: «شكراً يا جيرهارد، إنك تعلم انني أنا كذلك معجبة بك.»

فقال بلهجة ملتوية: «هذا حسن، سأحاول أن أجد في قولك هذا ما يعزيني. حسناً، ليس ثمة مشاعر قوية يا

مارتن. على كل حال، لقد أسعدني جداً أن طفت بك وتشارلز في أنحاء فرانكفورت، وأمل أن تعودي إلى لندن بسرعة لأنني ساكون هناك أثناء العيد، ومن يدري؟ فقد تكون النهاية بيني وبينك طيبة إذا لم يحصل الانسجام بينك وبين برونو.»

فنظرت إليه مارتن وهي تهتز، قائلة: «لا أدري ماذا أقول، يا جيرهارد.» ذلك أنها لم تكن تتوقع أن يكون شعوره نحوها بهذه الجدية. وابتسم لها قائلاً: «لا تنظري إلي كغزال جريح، يا مارتن، فان قلبي لم يتحطم وسأبقى حياً.»

وعندما وصلا إلى فندقها، ودّعها جيرهارد وهو يقول: «لقد كانت هذه فترة رائعة من حياتي، شكراً لك يا مارتن.»

فامتلأت عيناها دموعاً وهي تجيبه قائلة: «إنك بالغ الرقة واللطف يا جيرهارد، وقد جعلت رحلتنا رائعة.»

ثم اسرعت تدخل الفندق.

وبقيت مستلقية على سريرها تفكر في أنها لو لم تكن قد قابلت برونو، لوقعت حتماً في غرام جيرهارد وأصبحت سعيدة معه، وهكذا أصبح لديها سبب آخر لتكره برونو، فقد سمم حياتها من أوجه كثيرة.

اتجهت مع تشارلز إلى المطار في الصباح الباكر. وكان الشحوب والارهاق واضحين على مارتن، عند ركوبها الباص إلى الطائرة تملكها شعور بالغثيان، حتى أنها خافت من أن تتقيأ. وقد بقي تشارلز يحدق فيها بقلق أثناء وقوفهما في الصف أمام شباك فحص التذاكر، وأخيراً قال لها: «هل أنت واثقة من أنك على ما يرام يا مارتن؟ إن منظرك يبدو فظيعاً.»

فقالت ببساطة: «إنه السهر ليال عديدة.»

وشعرت بالوهن، وتمنت لو تجلس في مكان ما، فقد مضى عليها أكثر من عشر دقائق في هذه الوقفة في الصف. وتملكها شعور غريب. وسمعت صوت تشارلز يهتف بها وكأنه آت من مكان بعيد. وهنا أدركت أنها على وشك الاغماء.

وبعد لحظة، كانت قد انهارت على الأرض وقد أحاط شعرها الأحمر القاتم بوجهها الشاحب.

واستدعي طبيب المطار حيث أخذت مارتن إلى غرفة هادئة، وكانت قد استفاقت الآن، ومن ثم أخذ يفحصها ويلقي عليها بعض الأسئلة التي كان تشارلز يترجمها لها.

وبعد لحظات قال لها تشارلز: «إنه يريد أن يعلم إذا كانت هناك أعراض أخرى.»

فازدردت ريقها، وعضت شفتها السفلى، ولم يخف ترددها على الطبيب الذي استدار يلقي سؤالاً على تشارلز بحدة.

فألقى تشارلز عليها نظرة مجفلة ثم قال:

«إنه يسأل عما إذا كنت حاملاً...»

فحولت مارتن عينيها عنه وهي تومىء برأسها، ولم يكن تشارلز بحاجة إلى أن يترجم هذا، فقد ابتسم الطبيب قائلاً: «آه...» ثم أخذ يتحدث بالألمانية، فقال لها تشارلز: «إنه يقول إن هذا ربما كان سبب الاغماء الذي أصابك، وإذا كان لديك مشكلات أخرى فعليك أن تراجعي طبيبك حال وصولك إلى البيت.»

ثم تركا الطبيب وعادا إلى قاعة المطار دون أن يتبادلا كلمة، فاشتريا صحفاً ومجلات أخذا يطالعانها أثناء انتظارهما

الطائرة. وفي الطائرة، كانت مارتن تتجنب مقابلة عيني تشارلز، كما كان هو عابساً مستغرقاً في الصمت.

بقيا على هذه الحال إلى أن وصلا إلى لندن، وأثناء الطريق، سألها تشارلز بصوت منخفض: «متى موعد الولادة؟»

فأجابت تردد يسير: «في حزيران (يونيو).»

فعاد إلى الصمت فترة طويلة قال بعدها: «هل صممت على شيء ما؟»

فهزت رأسها نفياً وهي تنظر إلى الخارج من النافذة وقد تجمدت ملامحها.

تمنت لو أن تشارلز يكف عن إلقاء الأسئلة، ولكنه عاد يسألها: «ألم يكن الأمر جدياً، يا مارتن؟ هل كان الأمر مجرد علاقة مختصرة؟»

فأطلقت، فجأة، ضحكة غاضبة مرة وهي تجيبه قائلة: «العلاقة المختصرة قد تعني سنة، ولكن هذه كانت ليلة واحدة فقط، فحدث لي هذا. هذا هو حظي.»

فبدأ الذهول على تشارلز، وأحست بأنه لم يكن يتوقع منها هذا السلوك. ولم يكن ثمة فائدة في أن تشرح له أن هذه ليست أخلاقها، وأنها لم تكن تهدف قط إلى هذا الفعل، وأنها في أشد الندم والمرارة لذلك.

وقال يسألها: «هل يعلم الأب؟» ولما هزت رأسها نفياً، عاد يسأل: «هل ستخبرينه؟» فهزت رأسها مرة أخرى. وتبع ذلك صمت آخر طويل، ثم عاد يسألها: «هل أعرفه أنا؟» ولما رأى أنها ترددت في الجواب جزءاً من الثانية أسرع يقول: «نعم، أنا أعرفه. أليس هو برونو؟»

فأدارت رأسها تنظر إليه غير مصدقة وقد شحب وجهها، كيف أمكنه أن يصل إلى الحقيقة؟ فهي لا تذكر أنها لمحت إليه بشيء. لقد تكهن جيرهارد أولاً، بشعورها نحو برونو... وها هو ذا تشارلز الآن. أتراها واضحة المشاعر إلى هذا الحد؟

وقال تشارلز عابساً: «لقد كنت دوماً متطرفة في ردات فعلك تجاهه. وكنت أتساءل عما يمكن أن يكون شعورك الحقيقي نحوه... وعندما عدتما من روما، لاحظت أنه أصبح بينكما شيء مختلف... فأدركت أنه قد حدث بينكما شيء ما. ذلك أن الجو كان يسوده الجفاء والبرودة كلما صادف أن كنتما في نفس الغرفة؟» فأشاحت بوجهها تخفي تألق الدموع في عينيها. لقد كان تشارلز غاية في الفطنة والحساسية. لماذا لا يكون برونو مثله؟

عندما أوصلها إلى شقتها، قال لها تشارلز: «سأصعد معك إلى شقتك لأطمئن عليك.» ثم تمتم بشيء لسائقه بصوت منخفض لم تسمعه. وعندما وصلا إلى بابها، سمعت صوت سيارته الليموزين تبتعد، فنظرت إليه مقطبة جبينها وهي تقول: «لماذا طلبت من سائقك الذهاب؟»

فأجاب: «سأعود إلى منزلي بسيارة اجرة، لأنني أريد الآن أن أتحدث إليك.»

فقالت بصوت متعب: «أرجوك يا تشارلز فأنا لا أشعر برغبة في الحديث عن هذا الموضوع هذه الليلة، إنني سأفكر في مشكلتي هذه ثم أخبرك بما استقر عليه رأيي، فيما بعد آخر هذا الأسبوع.»

فتبعها تشارلز إلى الداخل، متجاهلاً احتجاجها هذا،

وهو يقول: «سأجهز لك شيئاً لتشربينه. ما رأيك في فنجان كاكاو مع الحليب؟»

فوضعت يدها على فمها شاعرة بالغثيان لذكر الشراب، ثم ركضت نحو الحمام، وعندما عادت قالت معتذرة: «يبدو أن أي شيء يدخل معدتي سيحملني على التقيؤ.»

فقال: «يا للفتاة المسكينة، إجلسي فقد صنعت لك بعض الشاي.» وجلسا يشربان الشاي معاً بصمت.

سألها: «ألم تقرري بعد ما إذا كنت ستحتفظين بالجنين أم لا؟»

فهزت رأسها قائلة: «إنني أحاول أن أعمل عقلي منذ أسابيع... منذ اكتشفت الأمر.»

فسألها: «هل تريدين الاحتفاظ به؟ هل ستساعدك أسرتك؟»

فضحكت ساخرة وهي تقول: «ليس في نيتي أن أخبرهم حتى ولو احتفظت به. إن أبي، عند ذاك، لن يتكلم معي أبداً طوال حياته. فهو سيشعر بالعار لما فعلت، وسيخشى أن تلوك الناس سمعته إذا هم عرفوا بالأمر.»

فقال تشارلز: «وماذا بالنسبة لأمك؟»

فأجابت: «إنها لن تتجادل أبداً مع أبي. فما يقوله هو القانون في بيتنا. إنه ليس رجلاً قاسياً، فهو لم يرفع يده علي قط، ولكنه لا يحتمل معارضة من أحد، خصوصاً من إمرأة.»

فقال بذعر: «يبدو أنه فظيع.»

تمنت مارتن لو انها تتمكن من اخباره بحقيقة زواجها السريع المتهور وطلاقها الأسرع. ولكنها عبثاً تحاول، إذ

كانت تعلّق أهمية كبيرة على رأيه عندئذ، والذي ربما سيصفها بالفتاة الطائشة المتهورة.

وساد صمت طويل قال تشارلز بعده: «إن لدي خبراً يخصني، يا مارتن، إنني محكوم عليّ بالموت.»

فكاد الفنجان أن يسقط من يدها التي ارتجفت، فوضعته على المائدة وهي تحدق في تشارلز قائلة: «ما هذا الذي تتحدث عنه؟»

فأجاب ببساطة: «إنني أعاني من ورم في المخ، وهم يقولون إن من غير الممكن استئصاله بعملية، وحالته تسوء يوماً بعد يوم.»

ظلت عيناها مسمرتين على وجهه دون أن تستطيع التصديق، رغم ان الحقيقة كانت ظاهرة في ملامحه، لقد كان تشارلز يبدو فعلاً، غاية في النحول الآن، وقد فقد شعره بريق الحياة فيه كما طغى الشيب عليه. وكان جلده بلون الشمع، كما برزت عظام وجهه، فهو قد ابتدأ يتحول إلى هيكل عظمي.

همست وشفتاها ترتجفان: «أوه، يا تشارلز.»

فقال بهدوء: «قد أعيش ستة أشهر بعد، وقد أعيش ستة أيام. إنهم لا يستطيعون اعطائي جواباً حاسماً، ها أنت ذي قد أدركت السبب في استدعائي برونو فجأة لأعرض عليه أعلى مركز في المصرف، ذلك أنه ليس لي أولاد، كما أنني وزوجتي لم نتدبر أمر الإنجاب قبل أن... قبل أن تموت.»

فامتلأت عينا مارتن بالدمع وهي تحس الألم في صوته حين ذكر زوجته، ولا تحسه وهو يذكر مرضه، فقالت بصوت باك: «آه، يا تشارلز. يا عزيزي تشارلز. لِمَ

هذه القسوة من الحياة؟ لماذا تحدث مثل هذه الأمور؟»

«لقد سألت نفسي هذا السؤال عندما تسببت بحادث الاصطدام ذاك وقتلت اليزابيت. كنت على استعداد لأقدم حياتي كلها في سبيل أن تعيش هي، مع أنني كنت الشخص الذي تسبب في موتها. فيا لسخرية الأقدار. ولكنني لم أحظ بجواب قط لسؤالي هذا. إن هذه أمور تجري لكل شخص، ولا فائدة من الشكوى.»

وبقيت صامتة فترة سألته بعدها بصوت متهدج: «هل أنت متأكد تماماً من أنه لا يوجد عملية مجدية؟»

فهز كتفيه قائلاً: «لقد أخبروني بصراحة أن اجراء اي عملية سيكون فيها هلاكي. ومنذ ذلك الحين، اندفعت أنظم أموري، ولو كنت قد مت منذ شهور حين أخبروني بالورم هذا، لكنت تركت الفوضى ورائي، ولما حسبت حساب شيء، ذلك أن وفاة زوجتي قد أبطل الوصية التي كنت كتبتها. وكان لدي بعض القرارات الخطيرة مطلوبة مني... وأنا الآن قد نظمت كل الأمور، ومنها احضاري برونو إلى لندن ووضعه في مركز في المصرف يستطيع منه معرفة كل شيء عن العمل قبل أن أموت ويرث هو كل أسهمي.»

فقطبت جبينها فجأة وهي تسأله: «وهل أخبرته؟ هل يعلم برونو بأنك مريض جداً؟»

فهز رأسه قائلاً: «برونو ليس لديه فكرة عن ذلك أنت وحدك من يعلم باستثناء الأطباء الذين عاينوني.»

فقالت: «ولكنه يعلم طبعاً بأنك تركت له في وصيتك كل شيء.»

فهز رأسه مرة أخرى قائلاً: «كلا، ولكنني غيرت رأيي

بعد الذي أخبرتني به. إنني بحاجة إلى وريث يستمر في ادارة أعمالي بعد موتي، كما أنك بحاجة إلى أب لطفلك. وهذا الطفل تجري نفس دمائي في عروقه على كل حال. ويبدو هذا حلاً دقيقاً لمشكلتينا نحن الاثنين، أليس كذلك؟ فهل تتزوجينني يا مارتن؟»

وظنت هي للحظة، بأنها لم تسمعه جيداً، فلم تجب وإنما حدقت فيه بحيرة، فبادلها نظرتها تلك وقد ارتسمت على شفتيه الشاحبتين ابتسامة رقيقة.

وعاد يكرر: «هل تتزوجينني يا مارتن؟» وأمعن النظر في ملامحها الشاحبة وهو يتابع قائلاً: «الزواج فوراً، ولا تضيعي الوقت في التفكير، فالأمر لا يحتمل التأجيل بالنسبة إلينا نحن الاثنين.»

الفصل السادس

ولكن مارتن لم تكن بحاجة إلى التفكير لحظة واحدة. فهمست وهي تهز رأسها بعدم تصديق كلي: «شكراً... يا تشارلز... انك اكثر الرجال الذين عرفتهم، رقة وشهامة، وعرضك الزواج هذا هو شيء رائع... ولن أنسى لك هذا في حياتي، ولكنك تعلم أنني لا يمكن أن اقبل ذلك.»

فأجفل وكأنه كان يتوقع منها أن تقفز سروراً لعرضه هذا، ثم قال: «لِمَ لا؟»

فصدرت عنها ضحكة ترافقها تنهيدة وهي تقول: «يا عزيزي تشارلز، من غير الممكن أن اتزوجك لأجل نقودك حتى ولو كانت كلها لطفلي. ان رغبتك في مساعدتي هي من الشهامة، ولكن المال، في الحقيقة، ليس حلاً لمشكلاتي. فإن راتبي يكفي لإعالة طفلي بنفسي، كما أن عندي مبلغ التوفير في المصرف وهو وافر. وسأستخدم من تعتني بالطفل أثناء عملي. وثمة الكثير من الأمهات يتدبرن الأمر، في ظرف كهذا، بكل سهولة. أما بالنسبة إلى ما تريده من وريث تجري دماؤك في عروقه، حسناً، فأنا لا يمكنني تقديم نصيحة لك بهذا الشأن، ولكن برونو مازال قريبك الوحيد، وهو يفهم في الأعمال المصرفية التجارية اكثر من أي شخص آخر ما عداك.»

ونهضت واقفة، فنهض تشارلز بدوره وهو يقول عابساً: «كنت أظنك تكرهينه.»

www.elromancia.com

فضحكت قائلة: «ان شعوري نحوه لا يمنعني من تقييم امكانياته بنزاهة والاعتراف بأنه ذكي حقاً.»

فتمتم قائلاً: «نعم، هذا صحيح، ولكنه عابث. ولا أظن هذا يجعله مناسباً لأخذ مركزي في المصرف، يا مارتن. فأنا لست من أولئك الذين لا يعتقدون بأن العمل في المصرف يحتاج إلى خلق رزين.»

فقالت بجفاء: «إنني واثقة من أن برونو يتحلى بخلق طيب أثناء عمله في المصرف.»

فارتسمت على وجه تشارلز ابتسامة عريضة وهو يقول لها: «ان بإمكانك دوماً أن تجعليني اضحك حتى ولو كنت في أدنى درجات الاكتئاب. كما انك تتوخين الانصاف إلى درجة مدهشة. ولا أظن ثمة فتيات كثيرات يستطعن أن يكن حريصات على سلوكهن بالنسبة إلى برونو.»

فقالت دون أن تقوى على النظر في عينيه: «إنه لم يرغمني على شيء لم أكن أريد فعله.»

فسكت تشارلز، ولكنه أمسك بيدها يضغط عليها مشجعاً، بينما تابعت هي تقول: «أظن أن جيرهارد قد أوجز ذلك باختصار...»

فقاطعها تشارلز مردد: «جيرهارد؟ هل يعلم عن الطفل؟»

فأجابت: «كلا، ولكنه تكهن بوجود علاقة بيني وبين برونو. انني لا أدري لماذا سمحت لذلك بأن يحدث بيننا. ولكنه شيء خاص بيني وبين برونو فقط يا تشارلز. فلا تجعل ذلك يؤثر عليك بشيء. وأنا اعترف بأنه لم يسبق لي قط أن وثقت ببرونو منذ البداية. ولكنني لو كنت اعلم انك مريض إلى هذا الحد، لما سمحت للشكوك بأن تساورني

نحوه إلى هذا الحد. لقد ظننت أن تفكيرك باستقدامه وجعله وريثك هو شيء سابق لأوانه. فقد كنت أراك مازالت شاباً لمثل هذا، وهكذا خفت من أن يستغلك برونو وهو يتسلم منك كل شيء أمام بصري. أما الآن فقد فهمت كل شيء، ولا بد لي من الاعتراف بأن تصرفك كان سليماً للغاية بالنسبة لمصلحة المصرف. فهو افضل كثيراً من كل المرشحين لمركزك.»

وأومأ تشارلز قائلاً: «نعم. إنه لكذلك. ولكن من كرم اخلاقك أن تقولي هذا. انك امرأة عظيمة يا مارتن. لقد كان عليّ ان اعرض عليك الزواج منذ وقت طويل، وإنني لأتساءل عن جوابك عندذاك.»

فابتسمت بعطف وهي تجيب: «انه نفس ما قلته لك الآن يا تشارلز. وهو انني اشعر نحوك بكامل المودة والاعجاب، ولكن لا بد للزواج من أن يكون مؤسساً على قاعدة اقوى من هذا.»

فقال: «هذا صحيح. وهذا هو السبب في أنني لم أتزوج قبل أن اقابل اليزابيت. صحيح أنني كنت مشغولاً على الدوام، ولكنني مع هذا، تعرفت إلى نساء كثيرات اثناء كل تلك السنين وبعضهن كن في غاية الجمال. ولكنني لم اقابل المرأة التي أردت قضاء بقية حياتي معها، وقد شغلني هذا فترة طويلة، حتى لقد ظننت انني ربما كنت بارد المشاعر غير قادر على الحب، ثم تعرفت إلى اليزابيت التي شغفتني حباً.» وامتلأت عيناه ألماً، وهو يتابع قائلاً: «كانت أروع من قابلت، يا مارتن، ومنذ فقدتها اصبح عندي الموت والحياة سيان.»

فقالت: «ربما كان هذا هو سبب...» وسكتت فجأة. فنظر إليها يسألها: «سبب ماذا؟»

فهمست: «سبب هذا الورم الذي اصبت به.»

فقطب جبينه قائلاً: «اتعنين أن هذا وهم؟ ليته كان كذلك.»

فقالت: «كلا طبعاً. ولكننا نمرض احياناً عندما نكون تعساء جداً.»

ففكر قليلاً، ثم قال: «أتعنين أن منشأ هذا الورم نفسي؟ لا أدري، ولكنه موجود. لقد رأيت صور الأشعة. وقد أجمع الجراحون على أنه من الصعب استئصاله حيث أنه متغلغل في داخل المخ.»

فقالت: «إنني طبعاً متأكدة من صحة هذا يا تشارلز، ولكن العقل والجسم متداخلان الواحد في الآخر على الدوام مما يجعلهما يتفاعلان معاً ويؤثر أحدهما على الآخر. فالحزن بإمكانه أن يتخذ أشكالاً غريبة منها ما هو جسماني.»

فقال بضجر: «ما كنت لأتمنى لنفسي ورماً مهلكاً في المخ، فالصداع الذي أحس به مريع. وكذلك لديّ مشكلات خطيرة في عينيّ أدركوا منها ما أعانيه في المخ. وقد ابتدأت أفكر في أنني سأصاب بالعمى، ذلك أن قسماً من الرؤية عندي قد تلاشت في الجهة اليسرى.»

فقالت بذعر: «إنك لم تذكر شيئاً من هذا. منذ متى ابتدأ ذلك يحدث؟»

فأجاب: «كان ذلك تدريجياً. وهو يشتد أحياناً. لماذا تظنيني أصبحت آخذ إجازات كثيرة في الأشهر الأخيرة؟

فأنا أمكث في المنزل حين تشتد عليّ الآلام. ليس ثمة من يريد أن يمرّ بمثل هذه المعاناة، يا مارتن.»

فقالت بلهجة تقطر عطفاً: «ما أشد أسفي لأجلك، يا تشارلز. كان لك أن تخبرني قبل الآن بما تعانيه، بدلاً من أن تحتمل هذا العبء بمفردك.»

فقال: «لو كنت أخبرتك لقلت انه شعور نفساني.»

فقالت: «ولكن ليس هذا ما قصدته بحديثي. فأنا لم أقل إنك أردت بعقلك الواعي، أن تصاب بورم في المخ. ولكنك قلت الآن فقط، إن الحياة والموت كانا لديك سيان.»

فبدا وكأنه أصيب بصدمة وهو يقول: «نعم، ولكن... هل تعنين أنني كنت أطلب الموت دون وعي مني؟ وأن عقلي هو الذي أوجد هذا الورم في مخي؟ إن هذه الفكرة لم تخطر ببالي قط يا مارتن.»

فقالت: «لقد حدث هذا دون وعي منك يا تشارلز. وأنا لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يعقدوا جلسة استشارية بشأنك ويقوموا بعرض وضعك على بعض الاختصاصيين الذين اعتادوا مثله. لماذا لم تطلب من أطبائك أن يرسلك إلى واحد منهم؟»

فقال: «لقد اقترحوا عليّ فعلاً عدة مرات، استشارة شخص كهذا، ولكنني لم أر سبباً لذلك. فقد كنت قبلت فكرة الموت ولم أعد بحاجة إلى من يهوّن عليّ قبولها.»

فبان عليها الذعر وهي تقول: «ولكن، ألا تستطيع أن ترى السبب وراء ذلك؟ فقد قبلت فكرة الموت بسهولة لأنك كنت تريده تقريباً. إنك بحاجة إلى طلب عقد مجلس استشارة بشأنك، يا تشارلز، فأرجوك أن تجعل هذا أول ما تقوم به غداً صباحاً.»

فقال: «مازلت لا أستطيع رؤية سبب لذلك.»

فقالت وهي تكاد تبكي: «طبعاً هنالك سبب. فأنا لا أريدك أن تموت. لست أنا فقط بل كلنا سنفتقدك إلى درجة بالغة. إنك أصغر سناً من أن تستسلم للموت بهذه السهولة.»

فبدا عليه التأثر وقال: «هذا لطف كبير منك يا مارتن، ولكن...»

فقاطعته وهي تمسك بكتفيه تهزه قائلة: «لا تقل (ولكن)... عليك أن تبدأ الكفاح يا تشارلز. إياك أن تدع هذا الشيء المريع في رأسك ينتصر عليك.»

فقال: «إنك مكافحة على الدوام، يا مارتن، لقد لاحظت هذا فيك منذ الدقيقة التي عرفتك فيها. وكنت أنا مكافحاً مثلك مرة. ولكنني لا أدري إذا مازلت أملك القوة لذلك.»

فقالت بعنف: «عليك أن تجد القوة. حاول جرب أي شيء ولا تجلس هكذا بانتظار الموت.»

فبدا عليه الاضطراب والحيرة، ثم قال: «عندما أخبروني في البداية تقبلت ذلك، إذ رأيت ذلك قدراً لا مفر منه. لقد منعتني التعاسة من الاهتمام. والحقيقة أنهم كانوا يتداولون في أمر علاج ممكن له في حالة ما إذا كانت العملية غير ممكنة. وكانوا يقولون إن الورم ينتقل أحياناً إلى مكان آخر حيث يكون بإمكانهم إجراء العملية فيه. فهم ينتظرون ما إذا كان سيحدث ذلك. فطلبت منهم أن يخبروني عن حالتي بصراحة. ولما قالوا إنني قد لا أعيش أسابيع معدودة، أخبرتهم بأنني في هذه الحالة، أرغب في علاج قد لا يفيد، مثل اللايزر كما أظن. ولم أستمع إليهم.»

فقالت: «عد إليهم إذن واطلب منهم أن يقوموا بأي شيء، يا تشارلز، إياك والاستسلام.»

فقال: «ربما قد فات أوان ذلك...»

فعادت تهزه من كتفيه وهي تقول بعنف: «لا تكن انهزامياً. حاول على الأقل.»

فنظر إليها وهو يبتسم ابتسامته الصبيانية تلك التي تحبها، وهو يقول: «لا بأس، لا بأس. سأتصل بهم غداً. إنما هل قررت ما ستقومين به بالنسبة إلى الجنين؟»

فتنهدت قائلة: «لا أدري. لقد فكرت في البداية، في الاجهاض... ولكنني الآن لا أجرؤ على ذلك.»

وبقي تشارلز صامتاً بينما تابعت هي تقول: «إن المرء على ما تربى عليه. لقد عودني أبي أن أواجه دائماً مسؤولية ما فعلت، وليس التخلص من الاثباتات، ثم متابعة الطريق وكأن شيئاً لم يحدث. فالإجهاض ما هو سوى هرب من المسؤولية، أليس كذلك؟»

فقال بفتور: «إن القرار لك، تصرفي كما شئت.»

فقالت ببطء: «أعلم ذلك، وأنا أقدر الأسباب التي تحملهن على هذا القرار، فلهن ظروفهن الخاصة. أما أنا فإنني أتكلم عن مشاعري الخاصة. إن عليّ أن أتحمل نتيجة ما فعلت.»

فقال: «هل تعتبرين الطفل عقاباً تستحقينه؟ وماذا عن الطفل نفسه؟ فإذا كنت تشعرين بالامتعاض لوجوده، فهذه قسوة بالغة منك نحوه.»

نظرت إليه ذاهلة، ثم قالت: «إنني لم أفكر في الأمر بالنسبة إلى الطفل نفسه. لماذا تبدو الأمور بهذا التعقيد؟

فحيث أنني قد اعتدت الآن فقط على فكرة أنني حامل، لهذا مازلت أنظر للأمر من زاويتي الخاصة. فلا تشوّش ذهني أكثر من ذلك يا تشارلز. وربما أنا وأنت الآن بحاجة إلى مجلس استشاري.»

فلم يتمالك نفسه من الضحك وهو يقول: «أظن ذلك. ألسنا، نحن الاثنين، بحالة محزنة؟ ولكن بإمكانك أن تدفعي بالطفل إلى من يرعاه بعد ولادته.»

فساورها شعور غريب، ولمعت عيناها غضباً وهي تقول: «كلا، بل سأحتفظ به.»

فقال بلهجة بان فيها الرضا: «أظن أن غريزة الأمومة هي الغريزة الأساسية في المرأة.» فنظرت إليه وحاولت من جديد إفهامه حقيقة الوضع، ولكنها احست وكأن لسانها انعقد، فلم تتفوه بكلمة.

وتابع تشارلز قائلاً: «حسناً، أظنك ستكونين أماً ممتازة. فأنت هادئة تماماً، وعاطفية متفهمة في نفس الوقت، إنه طفل محظوظ.»

فتملكت مارتن رجفة. وللمرة الأولى تفكر في هذا الطفل وكيف سيبدو عندما... عندما يأتي. أتراه سيأخذ عنها شعرها الأحمر وعيناها الخضراوان، أم عيني وشعر أبيه الأسودين؟ ولكنها ما لبثت أن نفت هذه الخواطر. فهي لا تريد أن تذهب بأفكارها في ذلك الاتجاه. فهذا يجعل من الطفل حقيقة واقعة مما يصعب عليها معه، أن تفكر بهدوء وتقرر ما عليها فعله بالنسبة إلى المستقبل.

ونظر تشارلز إلى ساعته قائلاً: «لقد تأخر بي الوقت والأفضل أن أذهب.» وعند الباب توقف، ليقول لها: «إننا

مازلنا مصممين على الذهاب إلى فيينا، أليس كذلك؟»

فنظرت إليه بإمعان ثم قالت: «وهل ستحتمل عناء الرحلة؟»

فأجاب ببساطة: «أرجو ذلك فيما لو أن ذلك الورم في رأسي لا يسرع بالنمو بشكل مفاجيء. فأنا حالياً، أعيش من يوم ليوم، ولكنني أريد من كل قلبي أن أذهب، فقد يكون هذا آخر عيد في حياتي.»

فأجفلت وقد شحب وجهها، وقالت: «لا تتحدث هكذا، يا تشارلز، وعليك أن تتوقف عن مشاعرك السلبية هذه وتحاول أن تفكر بشكل إيجابي.»

فابتسم لها قائلاً: «إن فكرة قضاء العيد في فيينا هي إيجابية جداً، يخامرني شعور بأننا سنذهب وسنقضي وقتاً استثنائياً طيباً. إلا إذا لم تشئي الذهاب معي. في هذه الحالة يمكنني أن أعذرك إذا كنت ستشعرين أنك ستمضين وقتك مع رجل على شفا الموت.»

فقالت بمرح: «إنني طبعاً أرغب في الذهاب، فلا تكن أحمق. إنني بغاية اللهفة إلى رؤية غابات فيينا تكسوها الثلوج.» ولكنها، بعد خروجه شعرت بقلبها يغوص بين ضلوعها وقد عادت إليها شكوكها ومخاوفها لأجله.

إنها ليلة أخرى من تلك الليالي التي كان يتملكها فيها الأرق. ولكن، هذه الليلة، كان هناك شيئاً آخر إضافة لهمومها، ألا وهو ما أخبرها به تشارلز عن نفسه. لقد ملأها ذلك حزناً وذهولاً.

ماذا سيحدث لو أنه مات؟ لقد عملت مع تشارلز منذ بداية قدومها من الشمال، فامتلأت اعجاباً به ومودة له. فهي لا تطيق فكرة خلوّ المصرف منه.

وجلست على سريرها في بيجامتها الحريرية البيضاء، وقد لفت ذراعيها حول ركبتيها ومضت تحدق في الظلام.

إن ما يحتاجه تشارلز هو قوة تدفعه إلى مكافحة ذلك الشيء الذي يأكل مخه. إن عليها أن تحاول اقناعه بطريقة ما، بأن يبذل جهده في انقاذ حياته. على تشارلز ألا يسلم نفسه هكذا للموت ببساطة. إنها لن تسمح له بذلك.

عاد برونو من استراليا قبل العيد بأيام قليلة، ليجد جوّ لندن شديد البرودة وينذر بهطول الثلوج، وكان كثير من مكاتب الشركة خالية، حيث ذهبت مجموعة من الموظفين إلى رحلة للانزلاق على الثلوج في سويسرا، كما ذهب البعض إلى بلاد مشمسة. وكان تشارلز ومارتن سيشرعان برحلتهما إلى فيينا في اليوم التالي.

وعندما دخل برونو عليها المكتب، كانت هي مشغولة بإنهاء العمل بالنسبة للمكالمات، والملفات، وذلك قبل قيامها بالإجازة.

وكان تشارلز قد خرج لموعده مع الطبيب الاختصاصي. فقد عمل بنصيحتها وكان هذا هو موعده الأول للمباشرة بالعلاج. وكان يشعر بالعصبية لذلك.

وعندما فتح باب مكتبها، حسبته تشارلز قد عاد باكراً، ولكن خفقات قلبها أخذت في التسارع حين وقعت عيناها على وجه برونو.

أغلق الباب خلفه، ثم استند إليه مسترخياً وهو يشبك ذراعيه فوق صدره قائلاً: «مرحباً، كيف حالك؟»

فقالت بجفاء: «أراك عدت...»

أجاب ساخراً: «أراك مبتهجة لرؤيتي.»

فقالت متجاهلة سخريته: «هل كانت رحلتك جيدة؟»

قال: «لقد اكتسبت منها الكثير. لماذا معظم المكاتب خالية؟»

فأجابت دون أن تتمكن من تحويل عينيها عن عينيه: «لقد ذهب أكثرهم في عطلة العيد.» لقد شعرت وهي تراه بعد طول غياب، بعمق حبها له، فأخذت تنظر إليه بشوق.

وسألها: «وهل رحل تشارلز هو أيضاً؟»

فأجابت: «كلا، إنه في الخارج.»

فرفع حاجبيه قائلاً: «هل أنت وتشارلز الوحيدان في العمل اليوم؟»

فأجابت: «كلا، طبعاً. فإن الكثير من الموظفين في الخارج يتسوقون للعيد أثناء فرصة الغداء. وبالنسبة لأكثر الموظفين فهذا آخر يوم لهم قبل فرصة العيد. فقد صمم تشارلز على منح كثير منهم إجازة اسبوعين. بالمناسبة، لقد أقمنا حفلة المكتب للعيد أمس ومن المؤسف أنها فاتتك.»

فقال: «أظنني سأتغلب على صدمة خيبة الأمل هذه.» وتقدم نحوها وهو يتابع: «هل كانت الحفلة جيدة؟»

فأجابت: «لقد كانت مليئة بالمرح.»

فقال: «لقد كان من حسن الحظ أن كنت أنا غائباً وإلا لكنت أفسدت الحفلة عليكما.»

فقالت بحدة: «إنني متأكدة من أنك كنت ستبذل وسعك في هذا السبيل.»

فضحك ببرود قائلاً: «يمكنك أن تراهني على ذلك. أين ستمضين عطلة العيد بالمناسبة؟ هل لديك أسرة تمضين

فضحك ببرود قائلاً: «يمكنك أن تراهني على ذلك. أين ستمضين عطلة العيد بالمناسبة؟ هل لديك أسرة تمضين معها العيد؟»

فأجابت: «حسناً، لديّ أسرة فعلاً، ثم أنني اعتدت أن أمضي فترة الاعياد مع أهلي في بيتنا.»

فقال: «وأين يسكن أهلك؟»

فأجابت: «في الشمال عند الحدود مع اسكوتلندا. وأسرتي تعمل هناك في الزراعة منذ أجيال. ومزرعتنا صغيرة لا تتجاوز المئتي فدان قائمة في أرض جبلية معشبة. فأبي يربي فيها الغنم والماعز والدجاج.» وكانت تتكلم بسرعة وعصبية لكي تمنعه من توجيه مزيد من الأسئلة الشخصية. وكان هو يستمع إليها وقد اتكأ إلى كرسي خلفه، ثم سألها: «هل لديك أخوة أو أخوات؟»

فهزت رأسها نفياً قائلة: «كلا، فأنا الابنة الوحيدة لوالديّ.»

فعاد يسأل: «هل ستذهبين إلى هناك بسيارتك أم بالقطار؟»

فترددت ولكنها لم تجد مناصاً فقالت: «إنني، في الواقع لن أمضي العيد هذه السنة مع أهلي.»

فسألها باهتمام: «وماذا ستفعلين إذن؟ إنك طبعاً لن تقضينه في لندن بمفردك.»

فأجابت: «كلا، إننا ذاهبان إلى فيينا.»

فساد الصمت. وألقت عليه نظرة جانبية، ولكنه لم يتحرك وإن كان قد بدا عليه التوتر. وشحن جوّ الغرفة فجأة بالتوتر العصبي. وقال: «(إننا)؟ من تعنين بكلمة (إننا)؟»

فأجابت: «أنا وتشارلز.»

فقال بصوت هادىء مخيف وقف له شعر رأسها: «تعنين أنك أنت وتشارلز ستسافران إلى فيينا؟»

فأجابت: «نعم.»

فقال وقد أصبح صوته كحد السيف: «أنت وهو فقط؟»

فانفجرت قائلة بغضب: «لقد سبق وقلت لك نعم.» بأي حق يدخل إلى مكتبها ليحقق معها بهذا الشكل؟ أتراها معرضة للإرهاب في مكتبها وخصوصاً من قبل رجل ليس له الحق في أن ينظر إليها وكأنها اقترفت جريمة؟

وعاد يسألها: «هل ستذهبان في رحلة عمل مصرفي؟»

فرفعت وجهها وقد اشتعل الغضب في عينيها وقالت: «لقد سبق وأخبرتك أننا سنمضي هناك العيد في فندق.»

فأخذ يتنفس بعنف وهو يقول مكرراً: «إنك سترحلين مع تشارلز إذن.» وكان صوته هادئاً وكأنه لم يصدق ما تقول.

فأجابت بحدة: «نعم.» ولم تزد بينما كانت تغلي غلياناً. يجب أن لا تسمح له بالعودة إلى السيطرة عليها.

وفي محاولة لتغطية اضطرابها، حملت مجموعة من الملفات بين ذراعيها واتجهت إلى خزانة في الناحية الأخرى من الغرفة، ولكن ذلك كان غلطة منها إذ أخذ يحدق النظر فيها، في شعرها ووجهها ليقول بعد ذلك: «لقد كنت مشغولة إذن أثناء غيابي.»

فتظاهرت بأنها فهمت بأنه يعني شؤون المصرف، فأجابت: «هل سمعت بما حققه فيلبي، الذي استلم منك العمل، بنجاح؟ لم يكن ثمة جدال حقيقي في الإدارة، فقد قبل معظم حملة الأسهم عرض داتون. ولكن تشارلز سيخبرك فيما بعد بكل شيء عن ذلك.»

فسألها: «وهل سيخبرني أيضاً بكل شيء عنك وعنه؟»

فمدت يدها ترفع ملفاً آخر، وفجأة كان يقف بجانبها، فقفزت من مكانها مجفلة، بينما كان ينظر إليها بغضب قائلاً: «هل بينك وبينه علاقة؟»

فأجابت: «هذا ليس من شؤونك.»

فأمسك بذراعها يديرها إليه بعنف ويقول: «انظري إليّ عندما تكلمينني.»

فألقت عليه نظرة هي مزيج من التمرد والخوف، ثم قالت: «اترك ذراعي.»

فلم يفعل وإنما تراخت قبضته قليلاً وهو يقول: «إنك لن تذهبي معه. إنني أحب تشارلز، وقد أصبحت مولعاً به، وأنا أعلم أنك أنت أيضاً كذلك، ولكنك لست مغرمة به، يا مارتن ولم تكوني كذلك قط. ولكن هذا الرجل قد أصبح شبه حي منذ ماتت زوجته. إنه خالٍ من الحيوية، بينما أنت امرأة بالغة الحيوية. فأنت بحاجة إلى رجل يضرم نارك وليس يطفئها.»

فتمتمت وهي تنظر إليه من تحت أهدابها: «إنك لا تدري عن احتياجاتي شيئاً.»

فأجاب: «بل أعلم يا مارتن.» فهزتها لهجته الحارة العاطفية. وتذكرت آخر ليلة أمضتها معه في روما. وبدت لها تلك الليلة لن تتكرر أبداً، كما أن ذكراها لم تفارقها لحظة واحدة. فكانت تحلم به، وتتخيله ليلاً نهاراً، وها هوذا الآن هنا.

وتمتمت وهي تحاول أن تمرّ من جانبه: «لماذا لا تدعني وشأني؟»

ولكنه قبض على معصمها ثم جذبها نحوه فرفعت يديها تدفعه عنها، فقال: «لا أستطيع أن أصدق أنك على علاقة مع تشارلز، فأنت غير مغرمة به. لقد تأكدت من ذلك في روما. إذ انك لو كنت تحبينه لما تزوجتني.»

فقالت بخشونة: «ولكننا تطلقنا ولم أعد أرغب بك.»

فقال: «هل عليّ أن أثبت العكس مرة أخرى؟»

وشعرت بجسدها يحترق تحت وطأة نظراته، فأخذت تبادله النظر كعصفور قد نومته مغناطيسياً أفعى، ثم همست بذعر: «كلا.»

فقال: «ولكنني لست بحاجة لإثبات هذا، أليس كذلك؟ إن هذا يبدو في وجهك.»

فصدر عنها صوت مختنق بالحب وهي تلقي برأسها إلى الوراء. وتابع قائلاً: «ليس بإمكان تشارلز أبداً أن يسعدك.»

تركها وهو يمعن النظر في وجهها المتضرج وعينيها المتألقتين.

وشعرت هي بالاحتقار لنفسها وتقريباً بالكراهية له لتمكنه من أن يجعلها تنحط بمشاعرها تجاهه إلى هذا الدرك، وذلك في لحظة. وقالت له بمرارة: «ولكن تشارلز يجعلني أشعر بالأمان...»

فساد الصمت لحظة، ليعود فيمسكها من ذراعها يهزها غاضباً وهو يقول: «بالأمان؟ أهذا ما أقنعت نفسك بأنك بحاجة إليه؟ نعم، لا يساورني أدنى شك بأن في إمكان تشارلز أن يمنحك كل الأمان الذي في الدنيا، إذا كان هذا يعني المال الذي تسعين إليه، وأظن هذا ما تريدينه. الثروة، المكانة الاجتماعية... هل هذا ما تحتاجينه حقاً يا مارتن؟»

وشعرت بلهجته الساخرة كصفعة على وجهها، فلم تستطع الجواب. فقد شعرت بإهانة حقيقية.

فقال لها بحدة: «أما من جواب؟ حسناً، بإمكاني أن أتعهد لك بأنك لن تشعري أبداً بالأمان ما دمت أنا قريباً منك، يا مارتن، سواء تزوجت تشارلز أم لا. كوني واثقة من ذلك.»

الفصل السابع

في طريق العودة من فيينا، شعرت مارتن بضيق في صدرها وهي تفكر في قرب رؤيتها لبرونو. لقد كان التهديد الذي رأته في وجه برونو، وفي صوته الخشن في ذلك اليوم الذي سبق ركوبهما الطائرة إلى فيينا، كان كل ذلك يتراءى لها أينما توجهت عيناها أثناء تلك الرحلة، كان عليها أن تخبره أن ليس في نيتها مطلقاً الزواج من تشارلز. ولكنها عندما رأت عينيه السوداوين تلمعان، سخرية، شاءت أن ترد له الصاع صاعين كما يقال، وذلك بأي شكل كان. فما دام يجب أن يعتقد أنها تلاحق تشارلز، فلتدعه يعتقد ذلك. وكانت تلك فكرة غبية حقاً.

لقد كانت أدركت هذا بعد ذلك بدقائق. ولكن كبرياءها منعها من أن تذهب في أثره لتخبره الحقيقة، ولكن، ربما ما كان ليقبل بالاستماع إليها.

ونظرت من نافذة الطائرة إلى السحب، وهي تفكر في أنه إذا كان يظن حقاً أنها تلاحق تشارلز لأجل امواله، فمهما قالت لن يمكنها أن تغير من ظنه هذا.

وسألها تشارلز بقلق: «هل أنت على ما يرام؟»

فاستدارت إليه مجفلة وسألته: «ماذا؟»

فأجاب: «يبدو عليك التوتر كما أن لونك يتغير بين لحظة وأخرى.»

فقالت كاذبة: «إن هبوط الطائرة عادة يجعلني متوترة.»

فقال تشارلز بسرور: «ومع ذلك، فرجوعنا إلى لندن هو شيء حسن. لقد كانت فيينا رائعة، ولكنني أحب دائماً العودة إلى لندن وإلى عملي.»

فقالت وهي تغمض عينيها حالمة: «لقد كانت فيينا حلماً.» فقد كانت فيينا تبدو، والثلج يغطيها، شيئاً غير حقيقي أحياناً... ثريا تتألق بالأضواء، صورة على المسرح.

هل نسي تشارلز مبلغ المتعة التي شعر بها أثناء وجوده هناك؟

لقد قال مرة أثناء جلوسهما في مقهى يطل على مدرسة اسبانية لركوب الخيل، قال: «بإمكاني أن أمكث سنة هنا دون أن يدركني الملل.» وكان أمام كل منهما فنجان من القهوة تغطيه القشدة، وبجانبه شرائح الكاتو بالشكولاته.

لقد اجابته عندذاك وهي تزيح جانباً طبق حلواها دون أن تنهيها: «قد لا يدركك الملل حقاً، ولكن البدانة ستدركك حتماً، ان هذا الحلوى دسم تماماً. ولا بد أن الكاتو في فيينا هو الأكثر لذة في العالم. ماذا سنفعل في آخر يوم لنا هنا؟»

أجاب تشارلز: «اننا لم نقم بالتفرج على الغابات. فلنقم بذلك غداً.»

فقالت: «لشد ما أحب ذلك. إنه من الأشياء التي اتطلع إليها دوماً. لا أدري إذا كان بالإمكان القيام بذلك على ظهر عربة التزلج على الجليد.»

فأجاب: «لا شك في ذلك، إذ أن الثلج يغطي أرض الغابات.»

فقالت: «ما أجمل هذا. سألبس حذائي الأحمر الجديد والقبعة والقفازين المصنوعين من الصوف الذين اشتريتهم من معرض العيد.»

فسألها: «هل تريدين القيام بالمزيد من التسوق؟»

فأجابت: «كلا، فقد امتلأت حقيبتي بالهدايا.» فنظر إليها بإمعان ثم قال: «ألست نادمة على القدوم معي، يا مارتن؟»

فأجابت: «كلا بالطبع، فقد أمضيت وقتاً رائعاً.» وكانت هذه هي الحقيقة، ولكن ليس تماماً. فقد كان العيد بهيجاً تبادلا فيه الهدايا، واستمتعا بوجبة العيد على طريقة أهالي فيينا، والتي كانت عبارة عن لحم الأوز المطبوخ بالتفاح والبصل والأرز. وبجانبها الملفوف الأحمر والبطاطا الحلوة. لقد استمتعا بوقتهما كالأطفال. فقذفا بالمفرقعات، وارتديا قبعات الورق، ولوحا باشرطة الورق الملون. وضحكا كثيراً وتحدثا مع بقية السائحين. ومع هذا، فقد كانت مارتن تشعر بالإنقباض دون أن تعلم السبب تماماً، ربما لأن صورة عيني برنو، الغاضبتين لم تفارقها ما جعلها تشعر برغبة في البكاء، أو ربما لشعورها بالذنب لأنها لم تذهب لقضاء العيد مع أهلها رغم أن والديها اظهرا تفهمهما التام لرغبتها في قضاء العيد هذه السنة بشكل مختلف عن المعتاد، ولم يبد عليهما أي استياء. لقد كانا دوماً مكتفيين بنفسيهما عن الآخرين، ولم تتصور أن غيابها يمكن أن يفسد احتفالهما الهادىء بالعيد، ومع هذا فمازالت تشعر بالذنب.

كما كان الفندق مريحاً بشكل غير عادي، فالطعام ممتاز، والموظفون لطفاء، ولكنه كان اكثر الأعياد التي شهدتها،

غيابها يمكن أن يفسد احتفالهما الهادىء بالعيد، ومع هذا فمازالت تشعر بالذنب.

كما كان الفندق مريحاً بشكل غير عادي، فالطعام ممتاز، والموظفون لطفاء، ولكنه كان اكثر الأعياد التي شهدتها، غرابة. فقد بدا تشارلز اكثر حيوية مما كان عليه منذ وقت طويل، فقد ألقى بنفسه في كل شيء وقد صمم على امتاع نفسه، ولهذا كان سرورها بالقدوم معه هو لأجله فقط. ولكنهما في النهاية، لم يستطيعا تحقيق رغبتهما في زيارة الغابات راكبين عربة التزلج. ذلك أن مارتن شعرت، في آخر يوم لهما في فيينا، بالمرض. والسبب هو أن الطعام كان دسماً إلى حد لم تتعوده، ولكونها حاملاً، فقد أصيبت من جرائه، بالغثيان. وكان علاجها الوحيد هو الخلود إلى الراحة التامة، والحذر التام بالنسبة لما تأكل وتشرب، وهكذا مكثت في الفندق طيلة النهار مستلقية على سريرها. بينما ذهب تشارلز يتفرج على متحف الفنون فأمضى اكثر من ساعة في الغرفة الرائعة التي تحتوي على اكثر من نصف الأعمال الفنية غير المعروفة لبيتر بروغل الكبير. وكانا قد سبق وشاهدا ذلك من قبل. ولكن تشارلز أراد رؤيتها مرة أخرى. فلوحتا صيادون في الثلج وعرس الفلاحين كانتا من أفضل أعماله، لقد جلس امامهما مدة طويلة، كما قال لمارتن فيما بعد، مستمتعاً بعبقرية رسامه المفضل.

قال لمارتن وهما يهبطان في مطار لندن: «ثمة حياة أرضية تنضح بها رسومات بروغل. لقد رأيت في إحدى لوحاته صورة لامرأة حامل ذكرتني بك، وفكرت... في أن عليك أن تخبري برونو عن الجنين سواء عاجلاً أم آجلاً، يا مارتن.»

فأدارت رأسها تنظر إليه وقد توتر وجهها، ثم قالت: «إنني لن أخبره، وأريدك أن لا تخبره أنت أيضاً يا تشارلز. إنني لا أريده أن يعلم شيئاً عن حملي هذا.»

فقال: «لقد أدركت أنك غاضبة منه، ولكن، انني آسف يا مارتن ولكن يجب أن أقول لك ان له الحق في أن يعلم. فأنا لو كنت مكانه لطالبت بذلك.»

فقالت بمرارة: «انك لست برونو، فإن لديك شعوراً قوياً بالمسؤولية، بينما ليس لديه أي من ذلك، وعلى أي حال، فأنا من يحمل الجنين وليس هو، فهو لا علاقة له به.»

فتحرك تشارلز في مكانه بقلق، ثم قال: «اظنك اكثر تعقلاً من أن تكرري ما تتشدق به بعض النسوة من القول بأن الحق في الطفل لهن وحدهن لمجرد أنهن يحملنه تسعة اشهر في بطونهن، بينما الأب يعود إليه نصف تكوين الجنين. وهذا بالتأكيد يعطيه نصف الحق. وأنا متأكد من أنه سيساعدك مالياً لو علم بأمر الحمل، إذ أن الطفل يكلف كثيراً رغم راتبك الممتاز، خصوصاً إذا كنت ستتخذين له مربية دائمة.»

فانفجرت به قائلة: «إنني لن آخذ منه نقوداً حتى ولو اضطررت إلى مد يدي للتسول في الشوارع.»

فبدا عليه الذهول، ورأت هي أنها قد صدمته مرة أخرى، فقد كان تشارلز كمعظم الرجال، ملتزماً بالاعراف الاجتماعية ويصدمه السلوك غير المستقيم. وأرادت أن تضحك وتبكي في نفس الوقت، ولكن الدمع تغلب أخيراً. وقالت: «انني لا أريد أن اتكلم مع احد بهذا الشأن، إنني متعبة جداً ولا أريد سوى الذهاب إلى بيتي والاستلقاء على

فراشي، أشعر بصداع مؤلم يمنعني من التفكير بشكل مستقيم. هل بإمكاننا أن نؤجل هذا الحديث إلى وقت آخر؟»

فقال: «آسف إذا كنت كثير الإلحاح. إنني لن أقول شيئاً آخر. لماذا لم تخبريني بأنك مرهقة إلى هذا الحد؟ انك تبدين شاحبة حقاً يا فتاتي المسكينة. إذا لم تكوني يوم الاثنين على مايرام، فخذي عدة ايام راحة من العمل، ان عليك مراجعة طبيبك كذلك فلا تهمليه، فقد يكون لديك فقر في الدم أو غيره. أليس هذا شيئاً معتاداً عند الحوامل؟»

فضحكت قائلة: «انك بالغ اللطف يا تشارلز، لا تقلق فإن دمي قوي، وأنا متأكدة من أن صحتي ستكون طيبة يوم الاثنين. إنه السفر بالطائرة ما يصيبني عادة بالإعياء.»

بعد ذلك بساعة اوصلها إلى باب شقتها، حيث قصدت سريرها مباشرة لتستلقي عليه كالميتة، وفي اليوم التالي، ذهبت لزيارة والديها حاملة إليهما هدايا العيد. ولم تخبرهم بأمر زواجها وطلاقها وحملها، إذ لم تكن قد بدت عليها دلائل الحمل حتى الآن، ولكن أمها لاحظت عليها إمارات الإعياء. فنظرت إليها بقلق وهي تقول: «لا يبدو ان اجازتك في فينيا قد نفعت صحتك بشيء، إذ تبدين شديدة الشحوب يا عزيزتي.»

فأجابت: «إنني بخير تماماً ولكنني مرهقة من قيادة السيارة إلى هنا.»

فنظر إليها والدها بامتعاض وهو يقول: «انك تسافرين بكثرة... فنحن نتلقى دوماً البطاقات البريدية منك. مرة من روما، ثم من المانيا، ثم من النمسا... من العجيب أن رأسك لا يدور إذ تطوفين حول العالم طيلة الوقت، انك ستبلغين الثلاثين

دون أن تدركي ذلك ومازلت دون زواج، ولن تتزوجي أبداً مادمت دائمة الأسفار. ورئيسك هذا هل هو متزوج؟ وماذا تظن زوجته بك وأنت تسافرين معه على الدوام؟»

فأجابت: «لقد قتلت زوجته في حادث سيارة يا أبي.»

وتمتمت أمها: «لعلك تذكر أنها سبق وأخبرتنا بذلك. يا له من أمر محزن. وهل تجاوز المسكين محنته تلك؟»

فهزت رأسها قائلة: «كلا، ولا أظنه سينجح في ذلك.»

وعادت إلى لندن عصر اليوم التالي، وكانت في غاية الإعياء والرجفة تتملكها، فدخلت الحمام تغتسل وعندما خرجت كانت تشعر بالدوار فذهبت إلى فراشها على الفور وهي تحتضن قربة ماء ساخنة، ثم كومت اللحف فوقها.

ولم تستطع النهوض عند الصباح. فقد شعرت بحرارة وآلام في اطرافها وصداع. واتصلت هاتفياً بمقر عملها لتطلب إجازة مرضية، لتجد أن تشارلز كان قد سبق هو واتصل لنفس الغرض.

وقالت للسكرتيرة: «لا بد أننا نعاني من نفس المرض.»

فأجابت هذه بلهجة لاذعة: «إنني أتساءل كيف حدث واصبتما انتما الاثنين معاً؟»

ولم تجب مارتن، وعندما ألقت بالسماعة، استلقت وهي تفكر عابسة، اتراهم يخوضون في سيرتهما، هي وتشارلز؟

وبدا عليها الغضب. يجب أن يتوقف هذا الخوض في سيرتهما. ولكن ما الذي بإمكانها أن تفعله لذلك؟ ربما عليها أن تصارح بالحقيقة شخصاً ما فينشرها هذا بين الجميع. ماذا عن سكرتيرتها؟ واشتد الصداع فلم تستطع مواصلة التفكير بوضوح. فاستدارت وحاولت النوم.

استيقظت بعد ساعات على صوت رنين جرس الباب. فتجاهلته، ليعود بعد ذلك متتابعاً ملحاحاً ما لم تعد بعده تستطيع التجاهل.

تثاءبت، ونظرت إلى الساعة فوجدت أن النهار قد انتصف. فنزلت عن السرير وارتدت معطفها المنزلي المخملي الفيروزي اللون، ثم سارت إلى الباب تفتحه جزئياً. ومن خلال الفتحة رأت برونو وهو يقول لها: «آه، هل أنت هنا؟»

فردت قائلة: «وأين كنت تظنني سأكون؟ في الصحراء؟»

فأجابها ساخراً بجفاء: «بما أنك وتشارلز طلبتما إجازة مرضية في نفس اليوم، فقد تساءلت عما إذا كنت سأجدكما معاً في غرفة واحدة.»

فردت عليه بحدة ونفور: «أوه، ابتعد من هنا فأنا مريضة لا استطيع الحديث معك.» وحاولت أن تغلق الباب، ولكنه سبقها فوضع قدمه في العتبة وهو يقول: «دعيني أدخل.»

فاغرورقت عيناها بالدموع لرؤيته دون أن يسمح لها المرض باخفاء ذلك، ثم قالت بمرارة: «إنني لست إلى هذا الحد من الحماقة. فهل لك أن تبتعد؟»

فحدق فيها عابساً، ثم سار مبتعداً، ولكن قبل أن تغلق الباب، عاد بسرعة يلقي بنفسه على الباب بعنف فانفتح. ودخل برونو، وقد كاد يصطدم بها، ثم أغلق الباب خلفه بينما كانت هي تتراجع متعثرة، فأمسك بها وأعادها إلى سريرها.

كان رأسها يدور وهي تحدق فيه قائلة: «من تظن نفسك؟ كيف تجرؤ على اقتحام شقتي؟ اتركني من فضلك.»

فتجاهل قولها ووضع اللحاف عليها. فاحمر وجهها وضربته على يديه تبعدهما عنها قائلة: «ما الذي تفعله؟ إذا كنت تظن انني سأسمح لك مجدداً فأنت مجنون. إنني افضل الموت على ذلك حتى ولو كنت آخر رجل في العالم. اتركني.»

وقال: «لا تكوني حمقاء يا امرأة.» ثم قام يغطيها باهتمام. وما لبثت أن هدأت ولم يعد بإمكانها المقاومة، فأغمضت عينيها لتسيل منهما قطرات من الدمع على وجنتيها.

وانحنى يهمس في أذنها: «هل أخذت أي علاج؟ هل زرت طبيباً؟»

فأجابت: «كلا. تناولت اقراصاً مسكّنة فقط ولا أريد شيئاً غيره. فليس بي سوى رشح بسيط.»

فسألها: «ما اسم طبيبك؟»

فساورها الذعر. قد يخبره طبيبها بأنها حامل، وقالت له: «لا أريد طبيباً. فهل لك أن تخرج من بيتي؟ دعني وشأني. فإن كل ما احتاجه هو النوم.»

فحدق فيها عابساً. ثم مشى إلى النوافذ فأرخى عليها الستائر فغمر الظل الغرفة. وكانت هي متهالكة على الوسائد تنظر إليه وهو يسير نحو الباب، بعينين شبه مغمضتين، وهو يقول: «إلى اللقاء.» وما لبثت أن اغمضت عينيها وهي تتأوه وقد آلمتها الذكرى، ذكرى ليلة حبهما.

ودون كلمة أو حتى نظرة إلى الخلف، خرج هو من الغرفة مغلقاً الباب خلفه، ثم سمعت صوت انصفاق باب آخر. لا بد أنه الباب الخارجي. ها إنه قد رحل. واغمضت

عينيها وقد بلل الدمع اهدابها. يجب أن لا تفكر فيه.

كانت احلامها مضطربة. وكان جلدها ينضح بالعرق. لا بد أن درجة حرارتها عالية فقد كانت تهذي من الحمى. وحلمت مرة أن برونو بقربها، فتأوهت محتجة، شاعرة بحرارة شديدة. لقد مسح وجهها المعرق بإسفنجة مبللة باردة فتنهدت شاكرة.

ومرت لحظة لم يتحرك فيها أي منهما، مالبث بعدها أن أزاح يدها جانباً دون أن يتلفظ بكلمة، ثم عاد يربت على جبينها بالإسفنجة ببلطف. وشعرت بالحرارة تخف وبرأسها يصفو. وهمس برونو: «عودي الآن إلى النوم.» ولكن، هل كانت هي ناعسة أم حالمة؟ وانتابتها الحيرة. فقد كان يبدو الأمر حقيقة. كانت الحرارة التي شعرت بها من القوة بحيث لم تصدق أنه كان حلماً، فأرغمت نفسها على فتح عينيها ودارت بنظراتها تبحث عنه، ولكنه لم يكن هناك، كانت غرفتها معتمة، ولكنها فارغة. لا بد انها كانت تخيلات الحمى، أو ربما كانت حلماً. وأغمضت عينيها مرة أخرى وهي تتأوه، ثم عادت تستغرق في النوم، ولكن نومها الآن كان اكثر عمقاً، وأقل اضطراباً. وخف التعرق عندها عن قبل.

وعندما استفاقت مرة أخرى، كانت العتمة قد ازدادت ولم يكن لديها فكرة عن الوقت، وبعد لحظة سمعت صوتاً ايقظها تماماً. ولم تدرك في البداية ماهية هذا الصوت، ولكنها مالبثت أن ادركت أنه صوت تنفس. كان ثمة شخص موجود في الغرفة يتنفس.

وشعرت بالتوتر، وتسارعت دقات قلبها. وأجالت

نظراتها في أنحاء الغرفة دون أن تحرك رأسها. وأجفلت وهي ترى شبحاً يتحرك على بعد أقدام منها.

لقد كان رجلاً. وتملكها الهلع، فحدقت مرة أخرى... وتوقف قلبها عن الخفقان. هل هو برونو؟ وألقت نظرة أخرى تتأكد من ذلك. ولكنه كان هو.

لقد سبق وسمعت الباب الخارجي يغلق، فكيف امكنه أن يعود؟ أم انه لم يخرج قط؟

وحاولت أن تهدىء من خفقات قلبها قبل أن تقول بصوت مرتجف: «ما الذي تفعله هنا في غرفتي؟»

فأجفل وكأنه كان شبه نائم، ثم مال إلى الأمام واشعل الضوء فرأته جالساً على كرسي ذي ذراعين ومازال في بذلته نفسها، ولكن قميصه كان مفتوحاً عند العنق بينما أزاح ربطة عنقه جانباً.

وسألها ببساطة: «كيف حالك الآن؟»

فأثار هدوءه غضبها فاندفعت تقول ثائرة: «إن حالي لا يهم، إنما اخبرني لماذا مازلت في بيتي؟ ظننت انك خرجت؟»

فأخرج من جيبه مفتاحاً وضعه على منضدتها، فحدقت فيه دون أن تفهم شيئاً وهي تقول: «هل هذا...؟»

فقاطعها: «مفتاح بابك الخارجي. وكنت أنت قد تركته ملقياً هنا، وقد رأيته عندما جئت في وقت الغداء فأخذته واستعملته عندما عدت فيما بعد.»

فقالت: «ليس لك الحق في هذا.»

فقال دون اهتمام: «كلا؟ ولكنني كنت قلقاً لأجلك.»

عضت شفتها وقالت: «حسناً، هذا لطف منك. ولكن، مع

هذا، ما كان لك أن تفعل ذلك. لقد كنت بخير. كل ما كنت بحاجة إليه هو النوم.»

فلم يعلق على ذلك، بل وقف قائلاً: «هل تريدينني أن احضر لك شيئاً؟ طعام مثلاً أو شراب؟ عليك أن تشربي الكثير من السوائل.»

وكان بجانب فراشها إبريق مليء بعصير الليمون وكوب. فقالت: «هذا رائع وهو يكفيني، فشكراً. ان من الشهامة أن تهتم بي هكذا، ولكنني أظن أن عليك أن تذهب الآن.»

«أظن عليك أن تستشيري طبيباً. دعيني اتصل به...»

فقاطعته وقد توهج وجهها: «كلا، شكراً. يمكنني أن اتصل به بنفسي لو شئت. ولكنني اريدك أن تذهب الآن، من فضلك.»

فقال: «لا أظن حالتك تسمح لك بالعناية بنفسك، وهذه هي المرة الثانية التي تصابين فيها بالانفلونزا هذا الشتاء، ولا بد أن صحتك تتدهور، او ان اعصابك متوترة. أليس هذا ما يسبب المرض غالباً؟»

فقالت: «ان التوتر الوحيد الذي اعاني منه هو نتيجة صبري عليك.»

فقال: «وهذا ما قصدت قوله.»

شعرت باضطراب، فأرادت اخفاءه بالرد عليه بحدة: «اسمع. إنني أريد أن ادخل الحمام. فهل لك أن تخرج من شقتي؟»

فأجاب ببطء: «ماذا بك يا مارتن؟ إنني لن اتحول إلى رجل خطر إذا رأيتك تنزلين من سريرك بثياب النوم. لقد تجاوزنا تلك السن، أنا وأنت، منذ مدة طويلة.»

فحملقت فيه، ولكنها لم تستطع الإنتظار اكثر من ذلك.

كانت تريد أن تذهب إلى دورة المياه. فنزلت من السرير وسحبت روبها تضعه على كتفيها ثم ركضت إلى الحمام.

وكانت تغسل اسنانها متأملة صورتها في المرآة. عندما لاحظت، فجأة، قميص نومها. كان مبللاً جداً عند العنق.

حملقت في القميص وهي ترتجف من الصدمة. وبحركة آلية، أنهت غسل اسنانها ووجهها وهي تفكر بسرعة. لا بد أنها جنت، إذاً، فالذي أحست به لم يكن حلماً، بل حقيقة.

واغمضت عينيها وهي تتذكر حلمها، أو تخيلاتها، والحمى تلهب جسدها وتحرق ملاءات السرير، بينما جلدها ينضح عرقاً، ثم يأتي برونو ويقوم بغسل العرق عنها.

واندفعت خارجة من الحمام لتواجهه. وكان في المطبخ يعد الحساء. وعبقت الرائحة في أنفها، وأدركت مبلغ ما تشعر به من جوع. ولكنها كانت من الغضب بحيث لم تسمح لنفسها بالتفكير في ذلك، فقد كان يشغل ذهنها شيء اكثر أهمية من ذلك بكثير. وسألته بحدة: «ماذا كنت تفعل أثناء نومي، أيها النذل؟»

فنظر إليها ساخراً وهو يسألها بلهجة متكاسلة: «أتعنين انك لم تتذكري ذلك سوى الآن؟»

فأجابت: «ظننت أنني كنت أحلم.»

فقال وقد ضاقت عيناه: «انك تحلمين بأشياء حلوة.» وتابع قائلاً: «اسمعي. لقد وجدتك في حالة شنيعة، فقد كانت حرارتك شديدة الإرتفاع وجسدك يغسله العرق.»

فتمتمت: «اخرس. انك تحاول اغاظتي ليس إلا.»

فقال متهكماً: «انني لم استطع أن اتركك في هذه الحالة، وهكذا وجدت اسفنجة فابتدأت بالعناية بك.»

فقالت: «كان عليك أن توقظني.»

فقال: «لقد كلمتك فعلاً. وعندما وضعت الاسفنجة على جبينك فتحت عينيك ونظرت إليّ.» وسدّد إليها نظرة حادة لامعة محرقة وهو يتابع قائلاً: «فلا تدعي بأنك لم تكوني تدركين ما أفعل، يا مارتن.»

فتوهج وجهها وهي تتذكر كيف كانت تتلفظ باسمه بتوسل ولهفة. ولم تجرؤ على النظر في وجهه.

وتمتم: «وهكذا ترين أنني تصرفت كرجل مهذب. لقد جعلتك تعودين إلى النوم، بينما جلست أنا والشعور بالإحباط يكاد يدفعني إلى الجنون.»

فقالت: «كنت اهذي من الحمى دون وعي. ولم اكن ادري ما أفعل.»

فهمس وهو يتقدم نحوها خطوة: «بل اظنك كنت تدرين.»

فتراجعت إلى الخلف قائلة: «كلا يا برونو، لا يمكنني احتمال ذلك.»

فتجمد في مكانه وهو يلمس الألم والذعر في صوتها، وحدق فيها بحدة وقد أظلم وجهه، ثم قال: «لم يكن هذا هو الانطباع الذي ساورني عنك منذ ساعات.»

فقالت: «لقد اخبرتك انني كنت خارج نطاق الوعي. أما الآن فلا اريدك ان تلمسني.»

فقال ساخراً، ومازال العبوس يكسو ملامحه: «ليس هذا ما تريدين قوله، يا مارتن. انك تحبينني، ولكنك تريدين أن تتزوجي تشارلز، أليس كذلك؟ ان بإمكاني طبعاً أن ارغمك على الاعتراف بشعورك نحوي.»

فاهتزت وقد شحب وجهها. فأطلق ضحكة خشنة وهو

يرمقها بعينين عنيدتين، ثم قال: «لا تقلقي فلن افعل ذلك، إذ لن يشكل هذا أي فرق، ذلك أنني لا اخبرك بشيء لم تعرفيه من قبل ولم تصممي على تجاهله. لقد ادركنا ذلك، نحن الاثنين، عندما رأينا ذينك المراهقين في الشارع، في روما، أليس كذلك؟ لقد شعرت بالحسد منهما بشكل جنوني، عندذاك، وكذلك أنت. ولهذا، وافقت على الفور على زواجنا ولكن، لست أدري ما الذي حصل لك في اليوم التالي وصممت على الطلاق، وما أغباني عندما وافقت على ذلك.»

فقالت بهدوء: «ربما كان هذا صحيحاً، ولكننا لسنا مراهقين. إننا نحن الاثنين، راشدان نعرف مسؤوليات الحياة. فالحياة ليست سهلة، وأخذ ما تريد منها دون تفكير قد يسبب أوخم العواقب. وحيث اننا نتحدث الآن بصراحة، فإنني اعترف بأن... بأن في امكانك أن تدير رأسي.» ولما نظر إليها بعينين تلتمعان بالعاطفة، سارعت تقول: «ولكن الحق معك في أنني لا أتبع إلا ما يشير عليّ به عقلي وليس قلبي، فالمشاعر قد تغدر بالانسان وتجلب له السوء. وقد جربت ذلك شخصياً فقد سبق وخبرت الحب من قبل.»

فقطب جبينه قائلاً: «متى كان ذلك؟»

فأجابت: «هذا لا يهم. المهم هو أنني اتعلم من اخطائي.»

فسألها: «هل هو يعمل في المصرف؟»

«هذا لا يهم، فلا تغير الموضوع، فلم تعد لي به صلة.»

فقال: «ولكن له صلة بي أنا إذا كان هو من الأسباب التي تجعلك تصممين على تدمير حياتك.»

فقالت: «حسناً، إنه لا يعمل في المصرف، وأنت لا تعرفه، ولكنه كان يشبهك من بعض النواحي.»

فتوترت أسارير برونو، بينما تنهدت هي قائلة: «يبدو ان النوع الذي يجذبني من الرجال، هو الذي لا يناسبني. انك لا تناسبني يا برونو وأنا اعلم ان اي علاقة ستكون لي معك سوف تنتهي بالدموع، ولهذا لا أريد أن تكون لي بك أي علاقة. فإنني قد خططت لحياتي من جهة أخرى. فأرجوك أن تدعني وشأني من الآن فصاعداً، وعليك أن تفتش عن امرأة أخرى تقوم بالاعيبك معها.»

فسألها: «هل أفهم من ذلك أن خططك للمستقبل تشمل تشارلز؟»

فأومأت برأسها إيجاباً وقد بدا التوتر والإكتئاب على وجهها. ولم تعتبر ما قالته كذباً تماماً، فهي تأمل أن تبقى قريبة من تشارلز وهو يدير المصرف ويوفر لها العمل والإستقرار في عملها، ولكنها لم تكن تجرؤ على أن تخبر برونو بالحقيقة. فقد كانت تريده أن يبتعد عنها، ولم تجد غير هذه الوسيلة لذلك.

وألقى عليها نظرة طويلة قاتلة، ثم قال: «إذن، فلن أضيع وقتاً اكثر من ذلك معك. إنني لن أتمنى لك السعادة مع تشارلز لأنني اعرف انك لن تكوني كذلك. ان هذا الرجل لا يلائمك، وستدمرين حياته كما تدمرين حياتك، وأتمنى لك التعاسة البالغة لأن هذا ما تستحقينه.»

واستدار على عقبيه ثم خرج من الغرفة، وتناهى إلى مسامعها صوت الباب الخارجي ينصفق خلفه فيتجاوب صدى ذلك في أنحاء شقتها مشبهاً أجراس الموت.

الفصل الثامن

بدا فصل الشتاء طويلاً، فقد كان شهر كانون الثاني (يناير) مثلجاً، وشباط (فبراير) كان ممطراً طيلة الوقت تقريباً. وأثناء تلك الأيام الكئيبة الماطرة اصبح من المستحيل على مارتن إخفاء حملها.

لقد كانت تحاول إخفاء ذلك بالجاكتات الواسعة والأحزمة المطاطية تحت الثياب، ولكن هذا كله لم يعد في نهاية شباط (فبراير)، يفيد شيئاً، وكانت في هذا الوقت قد اكملت شهوراً خمسة من مدة الحمل، واصبحت صحياً، أفضل كثيراً من الأول، إذ كانت الشهور الأربعة الأولى حافلة بشعور الغثيان، فكانت تكثر من أخذ الإجازات المرضية. أما الآن فقد اصبحت فجأة، متألقة، صافية البشرة، لامعة العينين ومليئة بالحيوية.

كان الهمس قد ابتدأ ينتشر. كان الصمت في البداية، قد ران على الجميع حين رؤيتها، فابتدأ تبادل النظرات، والهمس والتأمل خفية في التغير الذي طرأ على جسمها، فكان وجه مارتن يتوهج، ويتجاهل ما يدور حولها. ولكنها في النهاية، قررت أن الوقت حان لكي تطلع شخصاً على سرها، وهكذا اختارت آني، التي كانت أخلص صديقة لها في المصرف، لكي تطلعها على أجزاء من الحقيقة.

كانت آني فتاة ذات قلب دافىء وشخصية مرحة، وكان الرجال يحومون حولها كالذباب حول إناء العسل. ولأنها

سبق وخاب أملها في شاب كانت تحبه، فقد تعاطفت مع مارتن في ورطتها هذه، وسألتها: «هل طلقك النذل بعد ان علم بحملك؟»

فأجابت مارتن: «كلا، في الحقيقة إنه نبذني قبل أن اعرف أنا أنني حامل.» ولم تعرف مارتن السبب الذي جعلها تحاول الدفاع عن برونو رغم أن آني لم تكن تشتبه في أنه برونو، على كل حال، إذ لم يكن لدى أحد في المصرف أي فكرة عن علاقة بينهما.

وسألتها آني: «حسناً، وماذا قال حين أخبرته؟»

فأجابت: «إنني لم أخبره.»

فنظرت إليها آني ذاهلة تسألها: «ولماذا لم تخبريه؟»

فأجابت: «إنني لم أعد أراه. فقد انتهى كل شيء بيننا ولا أريده أن يعود إليّ.» وكانت مارتن تريد بكلامها هذا أن تبعد برونو تماماً عن الشبهة.

فقالت آني: «يبدو أنه في منتهى الوحشية، وأنا لا ألومك. ولكن كان عليك أن ترغميه على الزواج منك واعانتك مادياً، فهو إبنه أيضاً على كل حال.»

قالت مارتن: «ليست هذه هي المسألة. انني أنا التي لا أريد نقوده.»

فقالت آني: «لو كنت أنا مكانك لأخذت منه نقوداً، أم انك لا تريدين الاحتفاظ بالجنين؟»

فأجابت مارتن: «بل سأحتفظ به. ولكنني أنا التي سأنفق عليه بنفسي.»

فقالت آني بابتسامة بان فيها الحسد: «أظنك تستطيعين ذلك براتبك الجيد. الذي تقبضينه، هل ستأتين له بمربية؟»

فأجابت: «هذا في السنة الأولى، وبعد ذلك أظن أن في وسعي تدبر الأمر بشكل ما.»

فسألتها آني: «وهل يعلم تشارلز بذلك؟ لا بد أنه اصيب بصدمة.»

فأجابت مارتن: «ان تشارلز انسان رائع.»

فضحكت آني قائلة: «اننا جميعاً نعرف مبلغ ولعك بتشارلز حتى أن الكثيرين منا يراهنون على أنه هو والد الطفل، وأنا...» وبترت كلامها فجأة إذا شعرت بشخص يدخل الغرفة، فاستدارت وابتسمت وهي ترى برونو ولكنها توقفت عن ذلك وهي ترى نظرة جامدة في تلك العينين السوداوين وهو يقول لها: «أليس لديك ما تعملينه يا آني؟ ان المصرف لا يدفع لك راتباً لكي تشربي القهوة وتخوضي في الكلام عن الناس.»

فنزلت عن مكتب مارتن حيث تحب الجلوس عادة، ثم انطلقت هاربة من المكتب دون كلمة، أما مارتن فقد استدارت نحو شاشة الكمبيوتر وقد جف فمها خوفاً.

كان برونو قد وصل هذا النهار فقط من رحلة قام بها إلى طوكيو منذ اسبوعين، وادركت على الفور انه قد سمع من الآخرين عنها. وكانت دوماً تخاف هذه اللحظة، اللحظة التي سيسمع فيها برونو بأنها حامل، هل سيدرك أنه والد الطفل؟

اغلق الباب ثم سار في أنحاء الغرفة كحيوان شرس، ما جعل اعصابها تتوتر وخفقات قلبها تتسارع.

وسألها فجأة: «هل هذا الطفل منه؟»

كان لهذا السؤال المفاجيء وقع السوط، فأجفلت، ثم

همست قائلة وهي تشيح بوجهها الذي هرب الدم منه: «إنني لا أريد أن اتكلم عنه.»

كان شعرها الأحمر القاتم يحيط بوجهها الشاحب بعد أن قصته قصيراً ليسهل عليها تنظيمه في الصباح، ما جعل شكلها يتغير كلياً، كما أنها اصبحت تزين وجهها بألوان فاتحة هادئة وذلك لسبب لم تكن تستطيع تفسيره. لم يكن الحمل هو الذي غير من شكلها فقط، بل إن هذا التغيير قد حدث في ذهنها أيضاً.

فقال: «لقد كنت تتكلمين عنه الآن إلى تلك الشقراء الغبية، فلماذا لا تريدين الكلام عنه إليّ؟»

فأجابت: «إن آني صديقة لي.»

ورأته بزاوية عينها يتصلب بجانبها وتتقبض يداه بشدة. وأجفلت، وشعرت للحظة، بالخوف من أن يضربها. وساد الصمت بينهما لحظة شعرت به، أثناءه، يتنفس بصعوبة بالغة قبل أن يقول: «كلا. إنني لا اطمح إلى أن اكون واحداً من اصدقائك.»

فجرحها كلامه هذا، وأرادت أن تصرخ في وجهه. ولكنها لم تشأ أن تظهر له أنها جرحت، فجاهدت للاحتفاظ بهدوء اعصابها وإبقاء رأسها مرفوعاً، عند ذلك، تصاعد رنين الهاتف، فتناولت السماعة بسرعة شاعرة بالسرور لهذه المقاطعة آملة أن يذهب، ولكنه لم يفعل بل وقف بجانب النافذة وظهره إليها وقد وضع يديه في جيبيه.

كان المتكلم أحد العملاء، وكان يريد أن يعرف نوع معاملاتهم بالنسبة لنظام رأس المال. فأخذت مارتن تشرح

له مطولاً، ولكنها لم تستطع الاستمرار في المكالمة، إذ أن العميل مالبث أن شكرها واقفل الهاتف.

وجازفت هي بالنظر إلى برونو الذي كان لايزال ينتظر، فتوتر جسدها وهي تراه يراقبها بعينين ناريتين، ثم يسألها: «هل فعلت ذلك عمداً؟»

فسألته مستفهمة: «عمداً؟»

فأجاب وقد ازداد غضبه: «انك فهمت سؤالي تماماً، هل تركت نفسك تحملين عمداً؟ ما هو هدفك من ذلك؟ هل لإرغام تشارلز على الزواج بك؟ هل هذه هي خطتك التي وضعتها؟»

فنهضت تواجهه قائلة وهي ترتجف وقد اختنق وجهها: «ان طريقة تفكيرك فظيعة وأنا لا أريد أن استمع إلى اكثر من هذا، فاخرج من هنا.»

فأجاب بغضب: «لن أخرج قبل أن اعرف ما إذا كانت خطتك نجحت وأنه سيتزوجك.»

فوضعت يديها على اذنيها لتمنع نفسها من سماع صوته وهي تقول بحدة: «أخرج.»

فاقترب منها يمسك بمعصميها وينزل يديها. وسرت الحرارة في عروقها للمسته، فتمايلت كعشبة أمام الريح. فانحنى نحوها وهو يتمتم ثائراً: «إنه لن يتزوجك، أليس كذلك؟ لقد عرفت ذلك من تصرفاتك. إنه مازال لا يريد الزواج منك. ربما كان يكن لك مودة وإعزازاً، وربما كان معجباً بك كأكثر الرجال. ولكن الزواج شيء آخر، اذ ربما يعرف السبب الذي يجعلك تريدين الزواج منه، فهو ليس مغفلاً، فالمسألة ليست مسألة حب. ربما تشارلز لا يريد أن تتزوجه امرأة لأجل ثروته أو لأجل ضمان مستقبلها، كما أن عليك أن

تعلمي أنه لن يسكت على هذا العمل الإبتزازي منك، كذلك.»

فكررت كلامه بذهول: «عمل ابتزازي؟»

فأجاب: «وماذا تسمينه إذن؟ انك تحاولين إرغامه على التقدم للزواج منك مستعملة إبنه سلاحاً لذلك. وأنا اسمي هذا ابتزازاً. وكان عليك أن تعلمي أن هذا لا يفيد مع تشارلز. لقد عملت معه سنوات، فكان المفروض أن تكوني على معرفة به بشكل افضل. فهو قد يكون، رجلاً لطيفاً رقيقاً، ولكنه صلب المراس في المعاملات، وإلا لما استطاع ان يدير هذا المصرف سنين طويلة بمثل هذا النجاح. ان المرء لا يستطيع ان يدير مؤسسة كبرى كهذه دون أن يكون لديه غرائز بالغة العنف.»

فقالت بمرارة: «لا بد انك تعرف ذلك.»

فنظر إليها بجمود، ثم قال: «وهكذا، إذا رفض تشارلز أن يتزوجك، فماذا ستصنعين؟ هل سيعترف بأنه هو الأب، ثم يصل معك إلى حل ترضيانه بالنسبة إلى الطفل؟»

فقالت: «ليس لديّ نية في أن اطلب نقوداً من والد ابني. ثم هل لك أن تترك معصميّ؟ انك تؤلمني.»

فنظر إلى يديها وكأنما أدهشه أن يكون مازال ممسكاً بهما، ثم تركهما، فنظرت إلى حيث تركت اصابعه آثاراً قاتمة حول معصميها، ثم قالت: «اظنك فخوراً بنفسك إذ تترك آثاراً عليّ كهذه.»

فأجاب: «إن الآثار التي تركتها أنت عليّ، لا يمكن شفاؤها بالسرعة التي تشفى بها هذه.»

فأجفلت للعنف الذي بدا في كلماته، وقد انتابها شعور من يفتح باب منزل ليجده يحترق واللهب يندفع منه نحوها.

لقد سبق وكان لونه مختنقاً من الغضب، ولكنه الآن قد اصبح شاحباً بارداً، كما اصبحت عيناه شديدتي السواد والغموض.

كان الصمت الذي ساد بينهما متوتراً، وتملكها الذعر من أن يلمسها مرة أخرى فتعود حرارتها إلى الارتفاع. وأخيراً قال بصوت خشن منخفض: «لقد سبق وقلت لك انك تقومين بلعبة خطرة. لقد انذرتك يا مارتن. لقد ظننت أن من السهل التعامل مع تشارلز، ولكنك مخطئة كما ترين.»

فقالت بغضب: «لا بأس. أنا كنت مخطئة، وأنت كنت على صواب، فهل انت سعيد الآن؟ هل هذا ما تريدني ان اقول؟ والآن بما أنك قد ارضيت زهوك، فاخرج من مكتبي.»

فحدق فيها متوتر الملامح. وفجأة، استدار على عقبيه وخرج من المكتب صافقاً الباب خلفه بعنف، وانفجرت مارتن باكية وهي تغطي وجهها بيديها ملقية رأسها على المكتب، ومضت تشهق وتنشج إلى أن هدأت اعصابها، وسكتت.

وفي المرة التالية التي رأت فيها برونو، تجاهلها هذا تماماً، إذ مر بها وكأنها غير مرئية. وشعرت هي وكأنه صفعها على وجهها، فعضت شفتها وقد غمرها الألم. ومنذ ذلك الحين اصبح الأمر بينهما بهذا الشكل، فإذا لم يكن يراهما أحد، فهو يتجاهلها تماماً، أما بحضور الآخرين فهو يتكلم معها بتهذيب وبرود دون أن تتلاقى اعينهما. وحرصت مارتن على تفادي اللقاء به قدر استطاعتها، كما كانت تجاهد في سبيل الاحتفاظ بهدوء ملامحها كلما رأته، ولكن الألم في اعماقها كان يزداد يوماً بعد يوم، وكانت على

كل حال، ترى تشارلز كثيراً خارج اوقات العمل، وكان هو يمضي يوماً في الأسبوع في عيادة حيث يتلقى نوعاً من العلاج لم يكن يتحدث عنه مطلقاً. وقد تعهدت مارتن أن تكون موجودة في ذلك الوقت على الدوام لكي تكون هناك فيما لو احتاجها. وفي البداية، كان يخرج من غرفة العلاج بالغ الشحوب والإرهاق. ولكنه لا يلبث أن يبدو عليه التحسن قليلاً، وقد يأخذها إلى تناول العشاء معه أو إلى المسرح. فكان ذلك يساعده على رفع معنوياته، وخاصة في الليلة التي تسبق موعد العلاج حين كان يبدو عليه اثناءها الخوف والقلق.

ومع مرور الأسابيع، ابتدأ مظهره يعود كما كان قبلاً، فازدادت حيويته وابتدأ يعود إليه شعور الاستمتاع بالحياة مرة أخرى.

وذات يوم مشرق من أواخر ايام نيسان (ابريل)، دخلت مارتن إلى مكتبه تحمل إليه مجموعة من الرسائل للحديث بشأنها. وتلقاها هو بابتسامة عفوية دافئة وهو يقول: «صباح الخير يا مارتن. اتعلمين أن الحمل يلائمك؟ انك تبدين اجمل من العادة.»

فقالت وهي تضع ما في يدها على المكتب: «شكراً، ولكنني اشعر بنفسي متضخمة.»

فقال: «كم بقي لمجيء الطفل؟»

فأجابت: «خمسة اسابيع.»

فنظرا معاً إلى بطنها المنتفخ، عند ذلك شعرت برفسة خفيفة كانت تتكرر كثيراً هذه الأيام. وشهق تشارلز ثم قال: «لقد رأيت هذا. ان بطنك تتحرك... ماذا يعني هذا؟»

فأجابت باسمة: «إنه الطفل، يرفس.»

فنظر إليها متردداً، ثم قال: «هل بإمكاني... هل تسمحين إذا أنا...»

فسألته ضاحكة: «ماذا؟»

فأجاب وقد احمر وجهه قليلاً: «هل أتحسسه؟» ففوجئت. ولكنها كانت قد تأثرت من افتتانه بالتغير الذي طرأ على جسمها أثناء الشهور السابقة. ذلك أن تشارلز رغم وصوله إلى منتصف العقد الرابع من عمره، وزواجه السابق، رغم كل ذلك ما زال ساذجاً بريئاً من بعض النواحي، ومنها معرفة التطورات التي يمر بها إنجاب الأبناء، حيث أن هذا قد فاته. فكان لهذا، لايفتأ يوجه إليها الأسئلة عن ذلك. حتى أنه اشترى كتاباً قرأه في هذا الموضوع، وكانت هي من جانبها، تشعر وكأنه يشاركها عملية الحمل هذه، وادركت ان اهتمامه الواضح هذا قد قوى من اعتقاد بقية الموظفين في المصرف بأن تشارلز هو والد الطفل.

وردت عليه قائلة: «طبعاً إذا كنت تريد ذلك.» فابتسم بخجل ووضع يده على بطنها ولكن الطفل كان قد أخلد إلى السكون، فلم يشعر هو بشيء، فقال وقد بدت عليه خيبة الأمل: «لقد توقف عن الحركة.»

فقالت: «نعم، فهو يرفس فقط عندما لا تريد منه ذلك.»

فقال يغيظها: «أراهن على أنه انثى.»

كان سكرتيره قد خرج منذ برهة، بعد وصول مارتن، تاركاً باب المكتب مفتوحاً قليلاً. وطرق مسامع مارتن حركة لتلتقي عيناها بعينين سوداوين تقدحان شرراً. وقبل أن تأتي بحركة، كان برونو قد اختفى. فأغمضت عينيها وقد

شحب وجهها وهي تجاهد لإخفاء ألمها عن تشارلز الذي كان يقول: «انني أحسّ بحركة خفيفة، كشخص يجعد ورقة، ولكنها منتظمة، اتظنين أن هذا قد يكون نبض الطفل؟»

فازدردت ريقها ثم اجابت بهدوء قائلة: «ربما.»

فقال: «ألم تشعري برغبة، وهم يفحصون الطفل تلفزيونياً، في أن تساليهم عن جنسه؟ لو كنت مكانك لسألتهم. فأنا في غاية الشوق لمعرفة ما إذا كان ذكراً أم أنثى.»

فقالت: «افضل الإنتظار لحين الولادة.»

فتمتم حالماً: «لقد اقترب وقت ذلك الآن. ما أصعب الإنتظار. انني اتساءل عن شكل الطفل وهل سيشبهك ام يشبه برونو؟ هل سيكون ذا شعر أحمر وعينين خضراوين، أم اسمر اسود الشعر والعينين؟ لشد ما أنا متلهف لمعرفة ذلك.»

في البداية، عندما علم لأول مرة بأنها حامل، قال إنه لن يكون موجوداً على قيد الحياة عندما تلد. ولكنها لاحظت الآن، وقد امتلأت عيناها دموعاً، أنه يتحدث بكل ثقة عن أنه سيكون موجوداً وقت ولادتها ويرى الطفل، ثمة تغيير عميق قد حدث في تشارلز أثناء شهور حملها. لقد عادت إليه الرغبة بالحياة، وخرج من الظلام إلى النور.

وتملكها شعور غريزي قوي بأنه سيعيش. وقفز قلبها ابتهاجاً، ولكنها قاومت الرغبة في إخباره بذلك فقد كانت اقترحت عليه، بعد عودتهما من فيينا، أن لا يأتيا على سيرة الموت بعد الآن، لقد كانت تريد من تشارلز ان يدع التفكير في الموت، ويتجه به نحو الحياة.

وفجأة، عاد تشارلز فجلس على كرسيه وأخذ يعبث بقلم على المكتب، ثم قال دون أن ينظر إليها: «كنت اتمنى لو كان طفلي أنا. أتمنى لو قبلت الزواج مني فتمنحينني بذلك الحق في مد يد العون لك وللطفل. ماوّال ذلك في إمكاننا... يا مارتن، أتمنى لو تغيرين رأيك وتقبلي الزواج بي فوراً، دعيني أمنح الطفل اسمي. إن هذا سيجعلني في منتهى السعادة، إن طفلك قد ايقظ في نفسي حب الحياة.»

فقالت بصوت أبح: «آه، يا تشارلز. ان ما تقوله هو أجمل ما قيل لي، ولكن الحياة نفسها تستحق أن نحياها.» ووضعت يدها على يده وهي تتابع باسمة: «إنني رغم تأثري بقولك هذا، اجيبك نفس الجواب، وهو كلا.»

فتنهد قائلاً: «ألا يمكنني اقناعك بتغيير رأيك؟»

فأجابت: «كلا يا تشارلز. إنني لن افعل بك ذلك. إذ انك، يوماً ما، ربما تقابل امرأة تعجبك فترغب في الزواج مرة أخرى. إنني اعرف انك لن تجد امرأة مثل اليزابيت، ولكن الحياة مليئة بالمفاجآت فأنت مازلت اكثر شباباً من أن توصد ابواب الحب في وجهك. انك ستجده مرة أخرى، عندما لا تتوقعه... انظر إلى التغير الذي اصابك منذ عطلة العيد. إن صحتك تبدو جيدة هذه الأيام، فأنت الآن رجل مختلف. ان وزنك يزيد، ولو وجهك يتحسن وعينيك تلمعان. ان ما انت بحاجة إليه الآن هو بعض الاهتمامات الخارجية. اتخذ لك هواية، رسم مثلاً، لعبة الغولف... أي شيء يجعلك تنخرط في المجتمع مرة أخرى.»

فقال: «من الغريب انك تقولين نفس الأشياء التي يقولها لي طبيبي المعالج. أم لعلك متآمرة معه؟»

فضحكت قائلة: «كلا، طبعاً، وإنما هو المنطق ليس الا.»
وترددت ثم جازفت بالقول تسأله: «متى ستجرى لك الفحوصات مرة أخرى؟»

فأجاب: «في خلال أيام قليلة. إدعي لي.» وكانت مارتن في مكتبها، في أواخر ذلك النهار. عندما دخل عليها برونو يحمل ملفاً يخص أحد العملاء الجدد، فوضعه امامها على المكتب وهو يقول: «أظن أنك طلبت هذا الملف.»

فنظرت إلى الاسم المدون على غلاف الملف وقالت: «آه، إنه كليمبتو، نعم، شكراً لك، إذا كنت ما تزال مشغولاً به فأنا لست مستعجلة بشأنه.»

فأجاب: «كلا، فأنا سأترك المكتب مبكراً هذا النهار. يمكنك إعادته إلى مكتبي عند انتهائك منه.»

فقالت: «طبعاً.» وانتظرت منه أن يخرج وعيناها على غلاف الملف تنظر إلى الخط الأسود الواضح الذي ميزته لتوها.

وكان يقف وقد بدا عليه عدم الارتياح، ثم قال بلهجة لاذعة: «كان منظر تشارلز وهو يضع كفه على بطنك بذلك الشكل، كان منظراً مؤثراً في الحقيقة. لقد أصبح مهووساً بطفله، إذ لم يعد له حديث سوى عن هذا الموضوع. والجميع واثقون الآن من أنه لا بد أن يتزوجك قبل مجيء الطفل لكي يتمكن من اعطائه اسمه. هل هذا صحيح؟ وهل اصبح بالإمكان تقديم التهنئة الآن؟»

فرفعت إليه عينين تطفحان ألماً، ثم قالت: «كلا، لا مجال للتهنئة.»

وكانت شفتاه متوترتين وهو يقول: «هذا خبر سيىء.» ثم استدار خارجاً من المكتب.

بقيت مارتن فترة طويلة تحدق في لا شيء، ولكنها قد اعتادت الألم اثناء الأشهر الماضية الطويلة. وهكذا ابعدته عن ذهنها لتعود فتركز على العمل الذي بين يديها. يجب أن لا تدعه يستمر في ايلامها كما فعل الآن. انها ستستيقظ يوماً ما لتجد انه لم يعد له تأثير عليها، لا روحياً ولا جسدياً. عند ذلك ستبدأ في نسيانه. ما أشد شوقها لذلك اليوم.

وتلك الليلة، كانت في طريقها إلى منزلها في قطار المترو تحت الأرض، عندما اصطدم القطار فجأة بشيء ما محدثاً قرقعة رهيبة، ومن ثم انطفأت الأنوار تماماً، وكانت مارتن في هذه الأثناء، جالسة. ولكن كان في العربة كثير من الواقفين الذين مالوا فجأة إلى الجانبين، ومنهم رجل ثقيل الوزن كان سقوطه فوقها، وكانت الصدمة بالغة ما جعلها عاجزة عن التنفس. فصرخت ألماً، كما سمعت آخرين يصرخون مذعورين. وهم يحاولون الوقوف متسائلين:

«ماذا حدث؟»

«ما الذي يجري؟»

«هل اصطدمنا بشيء؟»

«لماذا لم يعودوا فيضيئوا الأنوار؟»

«هل عند أحد علبة ثقاب؟»

واشعل البعض عود ثقاب، فبدا الرجل الذي سقط فوقها وهو يكافح للوقوف قائلاً: «آسف...» بينما اعتدل الآخرون في اماكنهم. ومن ثم انطفأ العود وعاد الظلام يخيم على المكان.

وهمس شخص يقول: «إنني أتساءل عما إذا كنا سنعود فنتابع طريقنا.»

وقالت فتاة بصوت مرتجف: «إن بقينا هنا في هذا النفق المظلم، فسأجن.»

فجاء صوت فتى مرفهاً عنها بقوله: «اهدأي يا كارين، لن يصيبك ضرر لأنهم سيخرجوننا حتماً. فإذا لم يتحرك القطار سنتابع طريقنا مشياً إلى أقرب محطة فلا تقلقي.» واختلطت احاديث الركاب في أنحاء العربة، في غمرة ذلك الظلام، يهدئون بعضهم بعضاً، ويتكهنون بما قد يكون حدث للقطار، وما قد يحدث بعد ذلك.

وبعد ذلك بربع ساعة، اقبل الحارس يحمل في يده مصباحاً يتفقد على نوره الركاب وما إذا كان قد تضرر أحد منهم، قائلاً لهم: «لقد تعطل القطار الذي أمامنا، كما كانت أجهزة الإنذار معطلة ما جعلنا نصطدم به. ولكن لا تقلقوا فلم يتضرر أحد بشكل خطير. ومن حسن الحظ أننا لم نكن مسرعين، ولهذا كان الضرر خفيفاً، وكان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ، وهذا هو الخبر الجيد. أما الخبر السيىء فهو أنه علينا ان ننتظر هنا إلى أن ينتهي افراغ القطار الأول من الركاب، سنبقى هنا بعض الوقت فاحتفظوا بمعنوياتكم غالية، وسنتمكن من اخراجكم جميعاً من هذا المكان في اقرب وقت ممكن.»

وتسارعت الأصوات تجيبه. فهذا يدعي بأن قلبه مريض ويجب أن يخرج من هنا على الفور. وآخر قال انه مصاب بعقدة نفسية تجعله يخاف من الأماكن المغلقة. وامرأة كانت تنشج بصوت عال طالبة اخراجها من هذا المكان، قائلة: «انني اكره الظلام. اكرهه ارجوك. ارجوك ان تخرجني من هنا...»

ولم يكن بإمكان الحارس إلا ان يقول: «سنخرجكم جميعاً من هنا بأسرع وقت ممكن. اعدكم بذلك.»

ولم تقل مارتن شيئاً، فالألم الشديد كان يجتاحها، ووجهها ينضح بالعرق. وكانت ترتجف. لقد ابتدأ الألم في ظهرها منذ وقع عليها ذلك الراكب البدين، ألم لم يسبق أن شعرت بمثله. ولكنها كانت قرأت عنه فهي تدرك كنهه.

لقد سببت لها صدمة الحادث هذه، آلام مخاض قبل الأوان. ولم يكن ثمة سبيل إلى معرفة مبلغ سرعة تقدم الولادة، فقد كانت محجوزة هنا دون أي عون طبي، في عربة حارة الجو، مزدحمة بالركاب.

وفكرت خائفة في أنها قد تخسر طفلها. عندما علمت في البداية، بأنها حامل، تمنت من كل قلبها لو أعادت عقارب الساعة إلى الوراء فلا يحدث هذا الحمل مطلقاً، أما الآن فإن فكرة خسارتها له تصيبها بالألم والذعر.

الفصل التاسع

وبعد ساعتين اخرجوها من القطار. وكانتا اطول ساعتين في حياتها. وكانت الرحلة في النفق إلى المحطة كالكابوس إذ لم يكن ثمة فراغ في معظم مسافة الطريق. فكان عليها، لهذا أن تسير، لتتوقف كل فترة عندما يفاجئها الألم، وكان ممرض سيارة الاسعاف يسير خلفها مباشرة يشجعها بقوله: «ليس الآن يا سيدتي. استمري في السير. ها قد أوشكنا على الوصول.»

ولم تجب هي، فقد كان الألم أشد من أن يسمح لها بالكلام. حتى عندما اتسع النفق واستطاعوا حملها على المحفة، كان ركوبها في الظلام غير مريح.

وفي الطريق، رأت نقاطاً مضيئة ضئيلة الحجم على جدار النفق، كانت عيوناً حمراء صغيرة تراقبها. فصرخت مستنجدة، فجمد رجال الاسعاف في اماكنهم، وقال أحدهم: «آه، لا تقولي انك تلدين الآن.» وقال آخر: «ما بك يا عزيزتي؟»

فأجابت وهي ترتجف: «انها جر... جراذين...» وساد صمت انطلق بعده الضحك ممزوجاً بالاشمئزاز والإرتياح، واحدهم يقول: «إن هذه الأنفاق مليئة بها فلا تخافي، انها لن تؤذيك.»

فعادت تستلقي مغمضة عينيها. وبعد ذلك بدقيقة كانت في المحطة تصعد بالمصعد إلى حيث كانت سيارة الاسعاف

تنتظرها. وبعد ذلك أدخلت قسم الولادة في أقرب مستشفى إلى منزلها، وذلك بعد أن فحصها الطبيب الذي قرر أنها في طور الولادة، قائلاً لها: «لو كنت وصلت إلى هنا قبل الآن بفترة، ربما كان بإمكاننا إيقاف الألم. أما الآن، فقد فات الأوان، ومن حسن الحظ أن لدينا سريراً خالياً.»

واعطيت قميص نوم من المستشفى، وسئلت: «اتريدين الاتصال هاتفياً، فتخبري احداً بوجودك في هذا المستشفى؟ وتطلبي اشياء تحتاجينها لاحضارها فيما بعد؟» وكان هذا السؤال موجهاً إليها من الممرضة المسؤولة التي كانت فطنت إلى عدم وجود خاتم زواج في إصبعها.

فأجابت مارتن: «نعم، سأتصل هاتفياً.» فوعدتها الممرضة المسؤولة بتحويل المكالمة إليها.

كان تشارلز، لحسن الحظ، في منزله، فهتف قائلاً: «ان الولادة مبكرة جداً. هل هذا أمر سيىء؟ ما الذي سيفعلونه بهذا الصدد؟ وما الذي جعل هذا يحدث مبكراً؟ سأطلب اختصاصياً لفحصك و... يجب أن تحصلي على افضل علاج... غرفة خاصة، مجلس استشارة...»

فقاطعته قائلة بضجر: «إنني هنا بأتم خير. واحصل على افضل علاج. ولا أريد أن انتقل من هنا. اسمع يا تشارلز، ليس لديّ وقت كاف... وأنا بحاجة إلى بعض الأشياء من شقتي. وهي معدّة جاهزة في حقيبة، هل بإمكانك أن تحضرها إليّ غداً؟»

فأجاب: «ليس غداً، بل الآن. إنني أريد أن اكون قريباً منك.»

فابتسمت وقالت: «سأكون مسرورة بوجودك معي.»

سألها: «والآن كيف استطيع الدخول إلى شقتك؟»

فأجابت: «إن الفتاة التي تسكن بجانبي تملك مفتاحاً احتياطياً لشقتي للطوارىء، فاجعلها تدخل معك، وستجد الحقيبة في غرفة نومي في قاع خزانة ثيابي. ثم هناك كتاب على المنضدة بجانب سريري وكذلك كيس حياكة الصوف، هل لك ان تحضرها لي؟»

فأجاب: «سأحضر لك ما تريدين، إلى اللقاء قريباً. إياك أن تلدي قبل حضوري.»

وعندما وصل تشارلز إلى المستشفى، كان قد مضى على احساسها بألم الولادة خمس ساعات.

قال: «لقد تكلمت مع الطبيبة، وهي تلك الفتاة ذات الجورب المنسول... يبدو أنها اصغر من أن تكون طبيبة تولّد النساء. أليس كذلك؟» ولكن مارتن لم تستطع الجواب إذ كانت تلهث، فعاد يقول: «على كل حال، لقد قالت إن كل شيء ممتاز بالنسبة إليك ما عدا أن مجيء الطفل هو قبل الأوان، ولكن ليس في ذلك أي خطر، ولا لزوم للقلق.»

فأجابت: «ومن قال إني قلقة؟ شكراً لقدومك يا تشارلز. هل احضرت كل شيء؟»

فأجاب: «كل شيء. وجارتك ترسل اليك حبها. وكانت تحب أن تحضر لرؤيتك، ولكنها تقوم بدوام ليلي هذا الأسبوع.»

فأومأت برأسها قائلة: «أعلم هذا.» فناول الحقيبة إلى الممرضة، ووضع بجانب سريرها بعض الكتب ثم نظر حوله في أنحاء الغرفة قائلاً بفضول: «هل هذه هي الغرفة التي ستلدين فيها؟»

فأجابت: «كلا، بل سينقلونني إلى غرفة أخرى للولادة.» ثم تشبثت بيده لشعورها بالألم. فأمسك بيدها بقوة. ثم سألها: «هل هذا مؤلم جداً لك يا مارتن.»

فأجابت: «يمكنني احتماله.»

فانحنى قائلاً: «انك شجاعة.» وهنا اندفعت ممرضة إلى الغرفة وهي تقول بشيء من التوتر: «ان لديك زائراً آخر يريد الدخول. هل تريدين رؤيته؟»

فقالت مارتن: «أهو رجل؟» ونظرت إلى تشارلز عاتبة وهي تسأله: «هل أخبرت برونو؟»

فأجفل قائلاً: «كلا. كلا بالطبع. إنني لم أخبر أحداً ما عدا جارتك.»

فقالت للممرضة بذعر: «قولي له أن يبتعد من هنا.» فاستدارت الممرضة خارجة، ولكن تشارلز قال لها: «انتظري لحظة. ما هو شكل هذا الرجل؟» ثم اضاف قائلاً لمارتن: «أليس من الممكن أن يكون هذا الرجل هو والدك؟»

فقالت الممرضة بجفاء: «هذا غير ممكن. فهو ليس كبير السن بل في الثلاثينات من عمره، أسمر وجذاب.»

فنظر تشارلز إلى مارتن قائلاً: «نعم، إنه برونو.»

فقالت مارتن للممرضة: «إنني لا أريد رؤيته.»

فخرجت هذه، ليفاجيء مارتن ألم آخر كان هو الاكثر عنفاً حتى الآن، وشد تشارلز على يدها بقلق. واستراحت بعد لحظة، فأخذ يمسح العرق عن وجهها، بمنديل ورقي أخذه من علبة بجانب سريرها.

فهمست: «يا لك من صديق عزيز يا تشارلز.» وفي هذه اللحظة تصاعدت ضجة واصوات عالية جعلتهما يتواثران،

ثم إذا بالباب ينفتح بعنف ويندفع منه برونو داخلاً الغرفة وقد تعلقت الممرضة بذراعه تحاول منعه عبثاً. ثم سألتها: «أتريدينني أن أنادي حارس الأمن؟»

فقال برونو الذي كان وقف الآن بجانب سرير مارتن وهو ينظر إليها عابساً: «ان عليهم أن يحضروا جيشاً بأكمله ليخرجوني من هنا رغم ارادتي.»

ورأت مارتن أناساً قد تجمعوا خلفهما مرهفي الأسماع. ولم تستطع تحمل هذا المشهد، في حالتها هذه، فقالت للممرضة: «لا بأس، دعيه لحظة أو اثنتين هنا.»

ألقت عليها الممرضة نظرة استهجان، قائلة: «حسناً، عليك أن تقرري نهائياً، وأظن واحداً منهما هو الأب. وقوانيننا لا تسمح إلا للأب بالبقاء في الغرفة.»

خرجت، وأغلق برونو الباب في تلك الوجوه الفضولية.

ووقف تشارلز يواجه برونو قائلاً: «ما الذي جعلك تتصرف بهذا الشكل؟ كيف علمت بمكانها؟»

فألقى عليه برونو نظرة قاتلة، وملامحه تنطق بالعداء المر، ثم قال: «أردت أن اتكلم معها، فذهبت إلى شقتها حيث صادفت جارتها خارجة إلى عملها والتي اخبرتني أن مارتن تواجه الولادة قبل الأوان وانك انت حضرت وأخذت لها بعض الحاجيات.»

فقال تشارلز مقطباً جبينه: «هذا صحيح، اسمع يا برونو، انك سمعت ما قالته مارتن... انها لا تريدك هنا... وأنا اهتم هنا براحتها...»

فزمجر برونو وهو يسدد إليه لكمة جعلته يدور على نفسه مترنحاً، ليسقط على طرف سريرها، زمجر قائلاً:

«إنني أعرف جيداً الطريقة التي كنت تهتم بها براحتها.»

وكتمت مارتن صرخة كادت تفلت منها وهي ترى ما حدث لتشارلز، وجلست في سريرها ثم زحفت نحوه وهي تهتف: «تشارلز... لقد كدت تقتله بهذه الضربة... آه، يا عزيزي تشارلز...»

فأمسكها برونو من كتفيها يجرها نحوه وهو يصرخ فيها: «انك لا تحبينه، بل تحبينني أنا رغم كرهك لذلك.»

وعندما نظرت إليه وقد التصق شعرها الأحمر القاتم حول وجهها، تابع متأوهاً: «وأنا مجنون بك، ألا يمكنك أن تري ذلك؟ إن حبي لك يزداد يوماً عن يوم؟ إنه يكاد يهلكني يا مارتن... لم يعد بإمكاني احتمال ذلك... فلا تضيعي حياتك لأجل هذا السافل الأناني الذي لا يحبك إلى درجة تدفعه إلى الزواج منك.»

فقال تشارلز وهو يجلس ويمسد فكه وقد بانت في عينيه نظرة أسف: «الحقيقة هي أنني طلبت منها أن تتزوجني.»

فشحب وجه برونو ونظر إلى وجه مارتن وهو يتنفس بعنف قائلاً: «وأنت قبلت طبعاً.»

فأجاب تشارلز عنها بقوله: «كلا، وإنما صدتني بكل خشونة، وكلما عرضت عليها الزواج رفضت هي ذلك.»

فأخذ ينقل نظراته الملتهبة بينه وبينها، ثم قال: «ماذا تقول؟ إنني لا أفهم...»

فتوتر جسدها وقد فاجأتها نوبة الألم، فأسرع تشارلز يزيحه جانباً ثم يتقدم إليها وهو يقول: «لقد نسيت أن تتنفسي بعمق يا عزيزتي... تنفسي...»

وأخذ الرجلان يراقبان تنفسها، إلى أن مرت نوبة الألم،

فقال برونو: «ولكن هذا الطفل هو طفلك، ولا بد أنها اخطأت معك، فلماذا تقبل هي بذلك ثم ترفض الزواج منك؟»

فنظر تشارلز إليه بجفاء قائلاً: «إنني لم ألمس مارتن قط.»

فقال برونو وهو ينظر إليه متعجباً: «ألم تفعل ذلك؟»

فأجاب: «كلا، والطفل ليس طفلي.»

فقال برونو: «ليس طفلك؟» وبدا عليه أنه لم يفهم ما يقوله تشارلز، فنظر إليه هذا متهكماً وهو يجيبه قائلاً: «كلا، إنه ليس طفلي. وياليته كان ذلك.»

فقال برونو: «ولكن، إذا لم يكن طفلك، فلماذا طلبت منها أن تتزوجك؟»

فأجابت مارتن عن هذا السؤال قائلة: «لأنه شعر بالأسف لأجلي عندما عرف أنني سألد طفلاً دون أب.»

فابتسم تشارلز لها قائلاً: «وأيضاً لأنني أريد هذا الطفل الذي شاركتك العيش معه حتى الآن ما جعلني اشعر بأنني أبوه.»

فبان الحزم على وجه برونو وتسمرت عيناه على وجه مارتن لحظة قبل أن يقول: «مادام هو ليس الأب، فأنا أبوه إذن.» وسكت يتفرس في التعبير الذي بدا في عينيها الخضراوين اللامعتين، ثم تابع يقول: «إنني أنا الأب، أليس كذلك. آه. زواجنا السريع. فهمت الآن. ولكن، ما الذي جعلك تخفين الأمر عني؟ لماذا جعلتني أظن أن الطفل طفله؟ لماذا فعلت هذا؟ إنني لا افهمك على الاطلاق.»

فتمتمت: «كلا. انك لا تفهمني. انك انت الذي اعتقدت أن تشارلز هو الأب... وأنت الذي بقيت مصراً على أنني أريد الزواج من تشارلز... وعندما نفيت أنا ذلك، لم تستمع

إليّ... لقد أسأت الظن بي كثيراً، وأنا لي كرامتي! ولهذا تخليت عن اقناعك بالحقيقة وتركتك تظن بي ما تشاء.»

فهمس بصوت مليء بالمشاعر: «لقد عذبتني طوال الأشهر الماضية، واحرقتني بنار الغيرة والتعاسة... هل كل هذا نتيجة شعورك بالكرامة؟»

فقالت: «وهل كنت تظنني في غاية السعادة والفرح؟» وهنا فاجأتها نوبة الألم، فسكتت عن الكلام. بينما قال تشارلز مخاطباً برونو بهدوء: «تعال أجلس على مقعدي وامسك بيدها وساعدها على التنفس، ولكن لا تستمر في ازعاجها بصراخك فحالتها لا تحتمل المشاعر العنيفة حالياً، ألا يمكنك أن تدرك هذا؟ يمكنك أن تعود إلى الشجار معها بعد أن يأتي طفلك إلى الوجود.»

فجلس برونو على الكرسي وأمسك بيد مارتن دون أن تنظر إليه.

بعد ذلك بلحظة، حين مرت نوبة الألم ورفعت مارتن رأسها على الوسادة، رأت برونو جالساً ممسكاً بيدها ولا أثر لتشارلز.

تلاقت عيونهما، ثم خفضت نظرها واهدابها ترتعش. وبعد لحظة تجاسرت على النظر إليه مرة أخرى ثم همست وقلبها يخفق بالحب: «انني آسفة يا برونو.»

ثم قال بصوت أجش: «وأنا آسف أيضاً. انني لا افهمك ولكنني غارق في حبك، إياك أن تبعديني عنك مرة أخرى.»

ولدت طفلتهما بعد ذلك بساعتين، وكانت ذات شعر أسود.

بعد ذلك بيومين سألها تشارلز: «أي اسم ستطلقينه عليها؟»

فأجابت مارتن ضاحكة: «روما.»

فقال: «لا شك انك تمزحين.»

فهزت رأسها قائلة: «أظن هذا الاسم يناسبها، فإن لها أنفاً رومانياً مميزاً.»

فقال بذعر: «هذا هراء، يا للطفلة المسكينة. إنها رائعة الجمال.»

فقالت: «كان عليك أن تراها بعد مجيئها بخمس دقائق. كانت التجاعيد تملأ جلدها وحمراء كالشمندر وصراخها يملأ الأجواء.»

فقال: «كانت تبدو رائعة. لقد رأيتها وهم يحملونها على العربة إلى غرفة الحضانة.»

فسألته وهي تتناول من يده حبة عنب كان يقدمها إليها: «هل بقيت منتظراً الولادة؟»

فأجاب ضاحكاً: «لقد جلست في غرفة الإنتظار وأمامي كومة من المجلات، وشاي فظيع حرص المستشفى على تزويدي به طوال مدة الإنتظار.»

فقالت بتأثر: «أوه، يا تشارلز... ما ألطف هذا منك... كان عليك أن تعود إلى بيتك ثم تتصل بعد ذلك من هناك لتسأل عني.»

فأجاب: «أردت أن أكون هنا لأراها وهي تصل إلى هذا العالم. إنني سأكون بقربك كصديق دوماً، أليس كذلك؟ لا تدعي برونو يغيّر عقلك.»

فقالت: «إنه لن يحاول ذلك.»

فنظر إليها بجفاء قائلاً: «إنه من الغيرة بحيث لا يستطيع النظر إليّ.»

فابتسمت خفية وهي تقول: «إنه لم يعد غيوراً بعد أن ادرك أنه كان مخطئاً في ظنه بنا.»

فلم يبد على تشارلز الاقتناع، وقال لها: «لقد علمت حقيقة وضعكما، هل ستتزوجينه من جديد يا مارتن؟»

فقالت: «هذا إذا طلب مني ذلك.» ولكنها كانت تدرك أن برونو سيعرض عليها الزواج مجدداً.

فتأوه تشارلز بحزن قائلاً: «أخاف أن يعود إلى سويسرا ويأخذك والطفلة معه، وذلك لإبعادكما عني.»

فأجفلت قائلة: «إنني لم أشعر بأنه يرغب في ترك المصرف. فهو يعشق السكن في لندن.»

فعاد يتأوه قائلاً: «إنه من النوع الذي يريدك أن تتركي الوظيفة وتصبحي أماً وربة منزل.»

فقالت متأملة: «اظنني أحب أن آخذ عطلة عدة أشهر مادامت روما صغيرة جداً. ويمكنني فيما بعد أن احضر إليها مربية وأعود إلى العمل إذا شئت لي أن أعود.»

فقال: «إنني طبعاً أريدك أن تعودي.» وفي هذه الأثناء فتح الباب ودخل برونو الذي تجمد في مكانه لدى رؤيته تشارلز الذي نظر إليه متحدياً وهو يقف قائلاً: «لقد كنت خارجاً لتوّي.» فأمسك برونو بالباب مفتوحاً له لكي يخرج وقد بدت في عينيه نظرة قاتلة حافلة بالتحذير وهو ينظر إلى تشارلز ما جعل مارتن تتمنى لو تضربه.

أما تشارلز فقد انحنى وقبل جبينها مودعاً متجاهلاً ما يهدده من خطر خلفه، وهو يقول لها: «امنحي طفلتك قبلة مني، وأيضاً اخبريها أن آخر فحص لي كانت نتيجته مشجعة جداً وأظهرت تحسناً ملحوظاً.»

فرفعت مارتن عينيها إليه وقد التمعتا بالدموع وقالت: «آه يا تشارلز، لشد ما أنا مسرورة. احضر مرة أخرى بسرعة واخبرني بكل شيء عن ذلك في المرة القادمة.»

فأجاب بلهجة يعني بها برونو: «لن يتمكن أحد من أن يمنعني من زيارتك.»

وعندما أغلق برونو الباب خلفه، توجه إلى مارتن يسألها: «أي فحص يتكلم عنه والتحسن في أي شيء؟»

وعندما اخبرته، شهق برونو مذهولاً وقال: «كلا، هذا هو السبب إذن في أنه كان يبدو احياناً كالأموات، ياللرجل المسكين.» وقطب جبينه وهو يحدّق فيها قائلاً: «يا ليتني لم اضربه. كان من الممكن أن تؤذيه تلك الضربة. لماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟»

فأجابت: «إنه لم يشأ أن يعلم بذلك أحد.»

فأومأ برونو برأسه وقد توترت شفتاه وهو يقول: «اتظنين أن ذلك العلاج فعال؟ وأنه قد يشفى تماماً؟»

فأجابت: «انني اتمنى له الشفاء، وقلبي مملوء بالثقة بذلك.»

قال: «لا بد أن الشعور بالذنب ساورك لهذا.»

فأومأت برأسها وهي تتنهد، ثم قالت: «لو كان قال إنه يحبني، ربما كنت وافقت. ولكننا نحن الاثنين، نعلم أن لا شيء من هذا بيننا. فقد كنا مجرد صديقين حميمين كأخ وأخته... إذ أن السبب الوحيد الذي جعله يعرض عليّ الزواج هو أن يورث الطفل القادم ثروته. وما كنت أنا لأتزوجه لسبب كهذا.» ونظرت إليه بجانب عينها وهي تتابع قائلة: «إنني أعرف انك كنت تظن بأنني ألاحقه لأجل أمواله. ان لك رأياً في النساء يدعو إلى السخرية.»

فأجاب عابساً: «ان رأيي مبني على بعض من عرفت من النساء. فأكثر النساء اللاتي عرفتهن كن على استعداد للزواج لأجل المال.»

فقالت باستياء: «انني لست كذلك، فأنا لست مادية رغم مداومتك على اتهامي بهذا.»

فقال يذكرها: «ولكنك تعمّدت استغفالي أيضاً. كنت من شدة الغيرة من تشارلز أن كان من الغريب أنني لم اقتله. والأسوأ من ذلك هو أنني مازلت أغار منه. إذ، رغم أنك سبق ورفضت الزواج منه، وانكما لم تكونا متحابين قط، فإن شعوراً عميقاً يجمعكما. كما أنه مهووس بالطفلة.»

فابتسمت برقة، قائلة: «نعم، هذا صحيح، وأنا مسرورة لهذا، لأن هذا الهوس هو الذي قاده إلى طريق الشفاء من الورم المخي، وأنا في الواقع أظن أن الجنين قد أنقذ حياته، إذ بينما كان هو ينمو في داخلي، كان الورم يتقلص. لقد منح الجنين تشارلز سبباً للتعلق بالحياة.»

فقال برونو مقطباً حاجبيه: «مع أنه ليس إبنه، أليس هذا غريباً؟»

فقالت وهي تشعر بالغثيان لفكرة انها ستواجه غيرته هذه إلى ما لا نهاية «ألا تصدقني؟» ولكنه هزّ رأسه على الفور قائلاً: «بل اصدقك طبعاً. ولكنني لا استطيع ان افهم سر تعلقه بالجنين في ذلك الحين.»

فأجابت: «وأنا كذلك لا استطيع فهم السبب، ولكن هذا ما حدث، يا برونو. لقد أوقفه التفكير في الجنين عن مداومة التفكير في أنه كان يقود السيارة لحظة وقوع الاصطدام الذي قتل زوجته، وكان هذا ما كان بحاجة إليه. لقد كان

متمنياً الموت لنفسه تقريباً، فكان عليه أن يتمنى الحياة. فتركيزه على جنيني ساعده على ذلك، لقد مثل له الجنين حياة جديدة... لقد فتح امامه أبواب المستقبل مرة أخرى.»

فنظر إليها برونو طويلاً، ثم قال: «وماذا عنا نحن؟ هل ثمة مستقبل امامنا، يا مارتن؟»

فتنفست بعمق وعيناها في عينيه، ثم همست: «إنني أحبك يا برونو. إذا كان هذا ما تسأل عنه.»

فأجاب بصوت منخفض أجش: «لقد كنت اسألك أن تتزوجيني. لقد سبق وعلمت بحبك لي... وهذا ما جعلني مجنوناً طوال الأشهر الماضية. كنت أعلم انك لي، ومع هذا ترفضين اقترابي منك.»

فقالت: «كنت قد اخبرتك مرة بأنني تألمت كثيراً منذ عدة سنوات، ولم أشأ التورط بعلاقة أخرى مرة ثانية. لقد استيقظت في ذلك الصباح في روما فوجدتك قد رحلت...» وتهدج صوتها واغمضت عينيها، تكافح الألم الذي ولدته الذكرى، وهي تتابع: «وتركت لي ورقة صغيرة تطلب مني أن يكون زواجنا سرياً، أحسست بالمهانة وصممت أن أجرحك كما جرحت مشاعري. لماذا فعلت ذلك؟»

فقال متأوهاً: «لقد أردت أن اكتب كلمات تحرق الورق، ولكنني لم اكن اعرف ما ستكون عليه ردة الفعل عندك ساعة تقرئين ذاك. لقد جلست دقيقة كانت أثناءها العواطف تغمر كياني، وفي النهاية، رأيت نفسي أخط هذه الكلمات المختصرة وأخرج. لم أشأ إيقاظك، فقد كنت راقدة بكل أمان، ولكنني لم استطع البقاء معك إذ قد يراني أحد في غرفتك، ولا أحد يعلم بأننا متزوجان وستفهم الأمور بشكل

خاطىء. ولم أكن أريد أن ألوث سمعتك معي ونحن أعضاء في المؤتمر. اما لماذا اردت أن يكون زواجنا سرياً فهذا لم تمنحيني الفرصة كي اشرح لك الأمر. فقد أردت حرصاً عليك وعلى سمعتك أن نتأكد من أن زواجنا سيكون ناجحاً من ثم أخبر الجميع بالأمر، كونه حصل بسرعة وتهور. ولكني فوجئت بك غريبة الاطوار معي، تتكلمين دوماً عن تشارلز بطريقة جعلتني اعتقد ان هناك علاقة بينكما، حتى انك لم تكلفي نفسك وتسألينني لماذا طلبت منك ذلك.»

فعضت شفتها قائلة: «ولكنك كنت في منتهى البرود عندما نزلت إلى غرفة الإفطار. فقد نظرت إليّ بعدم اكتراث تام.»

فقال بخشونة: «لم يكن ذاك برود مني أو عدم اكتراث. فقد كنت ارتجف كورقة شجر. كنت في انتظارك منذ نصف ساعة، على أحر من الجمر، وأنا أتساءل كيف ستنظرين إليّ عند وصولك... وماذا ستقولين لي... وإذا بي أراك تدخلين وكأنك مخلوقة من الثلج... وعلى وجهك تعبير يعني اياك أن تلمسني... وشعرت بقلبي ينهار. ولم أجد ما أخفي به شعوري ذاك سوى أن اضع على وجهي قناع الجمود، مدعياً عدم الاهتمام.»

وحدق الواحد منهما بالآخر بصمت، ثم همست مارتن: «لقد كنا نحن الاثنين، في منتهى الغباء.»

فقال: «ان كلمة الغباء لا تكفي. كل تلك الشهور التي كنت اثناءها أكاد أموت لأجلك... لو كنت فقط اعطيتني إشارة، بارقة أمل... ولكن كلما اقتربت منك واجهتني وكأنني عدوك.»

فقالت: «انني آسفة يا برونو. لم اكن اقصد ايلامك...» ثم

انفجرت ضاحكة وهي تتابع قائلة: «هذا كذب فأنا أردت حقاً أن أؤلمك، لأنك سبق وآلمتني جداً. ولكنني لم اكن ادرك أن بإمكاني إيلامك.»

فاقترب منها يحدق في عينيها وهو يهمس: «ان بإمكانك أن تجعلي من حياتي كابوساً. فأنا مجنون بك. ليس لديك فكرة عما صنعته بي أثناء الشهور الماضية. لم أكن استطيع النوم لكثرة تفكيري بك. كما كانت احلامي غاية في القلق والإضطراب.»

فشعرت بوجهها يتوهج، فهمست وأهدابها تنسدل على عينيها اللتين ملأهما الإضطراب: «وكذلك كنت أنا.»

فازداد اقتراباً منها، وفي هذه اللحظة قرعت الممرضة الباب، ثم دخلت حاملة الطفلة بين ذراعيها، وهي تعلم قائلة: «لقد حان وقت رؤية الطفلة، فهل أنت مستعدة لها يا سيدتي؟» ونظرت إلى برونو بحدة ثم قالت: «الجلوس ممنوع على السرير، من فضلك.»

فنزل برونو ومشى نحو النافذة يحدق إلى الخارج مولياً ظهره إليهما بينما كانت الممرضة تساعد مارتن على الجلوس لتمسك بالطفلة، خرجت الممرضة من الغرفة. وما أن اغلق الباب خلفها، حتى عاد برونو وجلس على السرير في نفس الوضع، ثم أخذ يراقب مبهوراً طفلته وقال لها: «انها جميلة، أليس كذلك؟»

فأجابت وهي تنظر إلى الطفلة بشغف: «إنها حيوان صغير.»

فقال: «يجب أن نتزوج حالما نخرج من هنا يا مارتن. لا أريد أن اضيع من حياتي لحظة بدونك وبدون الطفلة. لقد

سرق تشارلز مني، شهوراً طويلة كان يمكن أن نقضيها أنا وأنت، معاً.»

فقطبت جبينها قائلة: «لا تكن غيوراً من تشارلز.»

فقال: «بل أنا غيور منه، إنني اريدك لنفسي.»

فقالت: «هل كنت ستشعر بالغيرة لو كان هو أخي؟»

فأجاب: «ولكنه ليس أخاك.»

فقالت: «إنه أخي ليس بالدم، وإنما بكل المفاهيم الأخرى في العالم، إنني أحب تشارلز بطريقة مختلفة تماماً عن حبي لك، إنني لا أرغب فيه، وهو لا يجذبني، ولكن حبي له هو حبي لأخ لي، وأنا لا أريدك أن تغار منه.»

فنظر إليها بفم ملتوٍ، وقال: «سأوحي إلى نفسي على الدوام بأنه يمثل لك الأخ. ولكنني احذرك يا مارتن من أنني رجل غيور متملك. فأنت لي وحدي.»

فقالت وعيناها تتألقان: «أنا أحبك.»

فسمعته يتنفس بعنف، ثم يقول: «اريدك أن تتأكدي من أن تشارلز يفهم ذلك هو أيضاً.»

فأجابت: «إنه يفهم.» وهنا دخلت الممرضة لتأخذ منها الطفلة، فألقت على برونو نظرة استياء ثم قالت: «ها قد عدت للجلوس على السرير، يا سيد فالكوشي. هل تفضل أن تجلس على كرسي ككل شخص آخر، أم تترك الغرفة؟»

فجلس برونو على كرسي، وما أن خرجت الممرضة حتى عاد يقفز إلى السرير وسألها: «هل ترينها ستعود الآن، أم أن بإمكاننا أن نظفر بخمس دقائق؟»

فقالت: «لا يا برونو، فإنهم لا يتركوننا خمس دقائق بمفردنا.»

وهنا سمع الاثنان صوت اكرة الباب وهي تتحرك وسرعان ما كان برونو يندفع واقفاً على قدميه قبل أن يفتح الباب وتدخل منه الممرضة المسؤولة تقول وهي تنظر في أنحاء الغرفة بريبة: «هذا وقت حضور الطبيب يا سيد فالكوشي، ومن الأفضل أن تخرج.» ومشت نحو الباب تفتحَه له لكي يخرج.

فتقدم برونو نحو مارتن ليودعها، مودعاً، ثم يغتنم الفرصة فيهمس في أذنها: «اخرجي من هذا المكان بأسرع ما يمكن وتعالي إلى بيتك، يا حبيبتي، فأمامنا كثير من الوقت المهدور وعلينا أن نعوّضه.»

تمت

www.rewayat2.com مكتبة رواية